سياسة مكيافللى
وأثرها فى الفكر السياسى الحديث والمعاصر

د . مسعد عطية صقر
مدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة
بكلية الآداب - بينها

مقدمة البحث

السيادة سمة إنسانية ، والحرية جوهر وجود الإنسان ، والإلزام مسئولية تنبثق من داخله فتصبح قانوناً أخلاقياً ، ومن خارجه نتيجة للضغوط والمتناقضات والصعوبات والمعوقات والمشكلات التى تواجهه ، فكان عليه لزاماً لكى يستمر وجوده فى الحياة ، أن يجد نظاماً ونسقاً محدداً يحفظ له ذاته وبقائه وأن يضع حداً لرغباته التى لا تقف عند حد من خلال ذلك النظام ، مع الحفاظ على حقوقه الطبيعية ، الضرورية منها وغير الضرورية طالما أن له فيها حقاً ، فحقه فى الملكية من ثروة ومال ، حقه فى الدفاع عن نفسه والتعبير عنها ، حقه فى التعليم والثقافة ، حقه فى العمل ، حقه فى الحرية ، وغيرها من حقوق ، تؤكد على انسانيته ، يكفلها له النظام الذى يقوم عليه المجتمع المحيط به .

إلا أنه من جانب آخر ، يلاحظ أن بوادر الشر والخطيئة فى الفرد لم تنبع إلا من المنافسات والصراعات والتطلعات السلبية وعدم الإدراك الواعى بمفهومات الإنسانية فى ظل الحياة ، ومن ثم كان على النظام أو السلطة التى نصبّها الأنسان نفسه أن تجنبه تلك الشرور والآثام ، ذلك بوضع قوانين عادلة وتشريعات واضحة تحمى الكيان البشرى كله من ذاته وتسلطاته فتبقى فيه وتبرز دائماً الكيان الخيِّر الواعى الذى فُطر عليه .

(*) هذا البحث أودع بدار الكتب تحت رقم ٩٦/١٣٣٦١ ـ الترقيم الدولى 3-2184-19-977 .

إن النظام السياسي [illegible] أشكاله وأساليبه في العالم سواء ديمقراطي

أو ملكي مطلق أو فيدرالي (اتحادي مركزي) أو كنفيدرالي (لا مركزي) أو دبكتاتوري ، أو غيرها ، إلا أنه في حقيقته يهدف إلى رقي الأنسان وتثبيت ركائز وجوده وتحضره واستقراره .

ولقد كان للمفكرين والفلاسفة السياسيين آراء متعددة ذات أهمية بالغة وأفكار مختلفة تكشف عن تطور النظام السياسي وأهمية الدولة في قيام نظام محدد لها ، منذ الحضارات الشرقية القديمة إلى أفلاطون وأرسطو مروراً بالعصور الوسطى وعصر النهضة إلى الحديث والمعاصر .

ويتناول البحث أحد مفكري عصر النهضة وهو المفكر السياسي الإيطالي نيقولا مكيافللي (*) Niccola Machiavelli والذي يُعد ـ كما ذكر علماء السياسة ـ ثورة في الفكر الأوروبي في عصر النهضة إبان القرنين ١٥ ، ١٦ ، فإذا كان لجاليلو Galileo (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) باختراعه الفلكي ، وليوناردو دافنشي Leonardo Davinci (١٤٥٢ ـ ١٥١٩م) بإبداعه الفني ، وغيرهما من العلماء والأدباء أو الفنانين ، فإن لميكافللي أيضاً السبق في الانقلاب الفكري السياسي في أوروبا في ذلك الوقت .

وفقا لذلك حاول الباحث التنقيب في أبعاد الفكر السياسي وفلسفة السياسة ، من خلال التعرف على أهم مؤثرات ذلك السياسي الإيطالي في الفكر الحديث والمعاصر ، بعرض مفهوم القوة ، وسمات وواجبات الحاكم أو الأمير أو القائد ، أو السلطة المتمثلة في الدولة ، وهدفها من وضع النظام والقانون .

(*) ميكافللي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م) ولد في فلورنسا بإيطاليا ، كان أديباً وسياسياً مرموقاً عمل في بلاط أسرة المدتشي الحاكمة ، انتهج سياسة واقعية في كتابته وكان أهمها :

١ـ الأمير The prince . ٢ـ المحاضرات (أو المساجلات أو المطارحات أو المقالات) Discourses . ٣ـ تاريخ فلورينسا . ـ أنظر : (١) جون باول : الفكر السياسي الغربي ـ ترجمه / محمد رشاد خميس ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٥ ـ ص ٢٦٢ .

(٢) د. علاء حمروش : تاريخ الفلسفة السياسية ـ القاهرة ـ دار التعاون للطباعة والنشر ـ ١٩٨٦ ـ ص ١٠٥ .

ويهدف البحث أيضاً ـ استنتاجاً من ذلك ـ هل يمكن قبول تلك الأفكار المكيافللية والاتفاق معها فى النظم السياسية المعاصره أم لا ؟

وينقسم البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة :

الفصل الأول : تناول أفكار مكيافللى السياسية .

الفصل الثانى : تأثير مكيافللى فى العصر الحديث والمعاصر ، وقد عرض الباحث فيه كل من الفلاسفة هوبز Hobbes (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) ونيتشه Neitzsche (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م) وبوزانكيت Bosanquet (١٨٤٨ ـ ١٩٢٣م) .

الفصل الأول
رؤية مكيافللى السياسية

آراء المفكرين حول « الأمير »

لقد عبر مكيافللى فى كتابة « الأمير » The prince عن أمله العظيم فى رؤية بلاده المختلفة المدن ، المنقسمة على ذاتها من فلورنسا والبندقية وميلانو ولمبارد، بارما ، بيدمنت نابولى وغيرها من المدن الإيطالية ـ متحدة ومستقرة آمنة، ولذا جعل بطل كتابه « أميراً » قائداً إيطاليا ينهض بهذا الدور حيث يقضى على الخلافات والانقسامات الداخلية ، ويقف ضد أى تدخل أجنبى لبلاده ، متخذاً فى ذلك كل السبل للوصول الى هذه الغاية المنشودة وهذا الهدف السامى .

إن هذا المؤلف ـ كما يستنتج الباحث ـ ذا مضمون سياسى وأخلاقى ، وأيضاً علمانى ، كما أنه ذا رؤية نابعة من روح الوحدة الوطنية ومن منطق العصر الذى عاشه صاحبه ، لذا فإنه يكشف عن مدى إيثار مكيافللى لبلاده على أثرته لظروفه الذاتية والاجتماعية ، كما أن هذا السفر الصغير شامل ـ بعض الشىء ـ للجوانب السلبية التى يقع فيها حكام الدول من خداع وتهاون فى حق شعوبهم، إضافة إلى تلك الجوانب الإيجابية من ينبغية سيطرة الحاكم على دولته استناداً لذكائه وفطنته ، وبعد نظره تجاه الظروف المحيطة والأحداث الجارية فى المحيط الإقليمى والعالمى .

واقع الأمر ى يؤكد على أنه محاولة وحدوية لتجميع شتات دولة فى إطار قبة صلبة تحميها من كل محاولات النيل منها سواء داخلها أو خارجها .

لقد أبان العديد من السياسيين والمفكرين وأبدو تعليقاتهم وتحفظاتهم على كتاب « الأمير » فتناولوه بالتحليل النقدى والعلمى ، إلى جانب أساليب الذم أو المدح تجاهه ، ويمكن توضيح بعضاً منها : يقول رايلى Reilly « كتاب الأمير

دروس فى الحكم . يحفل بنماذج من خبرة مكيافللى الدبلوماسية ، ومطالعاته فى التاريخ القديم » [١] .

« إن مكيافللى يستخدم مصطلحات الخير والشر ، الجيد والسيء ، إنه يتحدث بلغة التكتيك لا بلغة الأخلاق . ولقد كانت هذه لغة جديدة سببت رعباً لقرائة الذين تربوا فى ظل الحضارة المسيحية التى تستند إلى المطلقات الأخلاقية ... هكذا اخترع مكيافللى علم السياسة (دراسة حقائق السياسة واستغنى عن الأخلاقيات المسيحية وخلق صورة جديدة للأخلاق الوثنية القديمة ، أعنى نسقاً أخلاقياً يعلى من قدر ممالك هذا العالم على ممالك العالم الآخر) وهذان الابتكاران ـ السياسة العلمية وأخلاق الدولة ـ هما هدية مكيافللى للعالم الحديث» [٢] « يقول رسل B. Russell » لا تنطوى التعاليم التى يقدمها كتاب « الأمير » على أيةَ محاولة لتقديم نصيحة خالصة إلى الحاكم تبين له كيف يكون حاكماً فاضلاً بل أن الكتاب يعترف بأن هناك ممارسات شريرة تؤدى إلى أكتشاف السلطة السياسية » [٣] .

ويقول كرين برينتون Crane Brinton عن أفكار مكيافللى :

« مكيا فللى أصيل فى تحليله السياسى الواقعى ، على الأقل فى سياق الثقافة المسيحية الغربية ... لقد حاول إلى حد ما أن يفعل ذات الشيء والذى كان علماء الطبيعة فى بداية طريقهم إليه : ملاحظة الظواهر بدقة فى ترتيبها وتصنيفها فى قوانين عامة .. على نحو يسمح بالتنبؤ الصادق بظواهر الطبيعة فى

---

(١) رايلى (كافين) : الغرب والعالم (القسم الثانى) ـ ترجمة / د. عبد الوهاب محمد المسيرى، د. هدى حجازى ـ مراجعة /د. فؤاد زكريا ـ الكويت ـ المجلس الوطنى للثقافة ـ عالم المعرفة (١٩٧) ـ ١٩٨٦ ـ ص . ص ٩ ، ١٠ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ١٤ .

(٣) رسل (برتراند) : حكمة الغرب ـ ترجمة / د. فؤاد زكريا ـ الكويت ـ عالم المعرفة ـ العدد ٧٢ ـ ١٩٨٣ـ جـ ٢ ـ ص ٣٠ .

سياق محدد . إلا أنه لم يوفق فى مجاله مثلما وفق العلماء فى مجالاته »[1] ثم يستطرد برينتون قائلاً :

« فكتاب الأمير ليس فى فحواه وهدفه رسالة علمية أو أكاديمية عن فن الحكم ، وإنما هو رسالة فى فن الحكم فى إيطاليا خلال ق ١٦ ، وهو رسالة غنية بتحريض الأمير والإلحاح عليه من أجل واجب، ومن أجل منافع تترتب على توحيد إيطاليا وطرد الأجنبى »[2] ويقول « بارتلمى سانتهيلير » Saint Hilair فى تعليق له فى مقدمة كتاب (السياسة) لأرسطو :

« لقد قبل كل شيء فى سياسة مكيافللى البغيضة وصار إسمها وحده ضرباً من الخزى عند رجال الدولة حتى أفسدهم سلوكاً . إن فكر المؤلف واضح جدا وإن إختلفت فى أمره التفاسير . إنما هى نصائح يسديها إلى لورنزو دى مديتشى ويقدم له قواعد « الأمير » .. ويظهر أن مكيافللى قد فَقَد كل تمييز بين الخير والشر ، فهو يوصى بالجناية فى كل صورها بهدوء الدم البارد . ليس معنى هذا أن « الأمير » لا يحوى إلا هذا السم الزعاف ، كلا ، فإن عقلاً حكيماً وحازماً يستطيع أن يفيد منه كثيراً ، يتعلم منه كل ما تقتضى الشئون من النشاط والعناية والإصرار وكل ما تستطيع إرادة الإنسان أن تعارض به صروف القدر»[3] .

ويقول د. علاء حمروش : (ومكيافللى فى كتاب « الأمير » يعالج العديد من القضايا السياسية الأساسية وحكمة الرومان فى الحكم ، وكيف يحكم الأمير الجديد الدولة الجديدة ... ولكن لم يقدم مكيافللى برنامجاً سياسياً محدداً ، ولم

---

(١) برينتون (كرين) : تشكيل العقل الحديث ـ ترجمة / شوقى جلال ـ الكويت ـ عالم المعرفة ـ العدد ٨٢ ـ ١٩٨٤ ـ ص ١٥٤ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ١٥٥ .

(٣) أرسطو طاليس : السياسة ـ ترجمة ـ أحمد لطفى السيد ـ تقديم / بارتلمى سانتهيلير ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩ ـ ص ، ص ٦٩ : ٧١ .

يكن فيلسوفاً بالمعنى الكلاسيكى ، ومع ذلك فلقد كان لكتابه « الأمير » تأثير هام على مجرى التطور اللاحق للفكر الفلسفى الحديث) [1] .

هذه المقتطفات تعبر عن آراء واستنتاجات بعض المفكرين عن « أمير » مكيافللى ، وفيها من التقويض والتقريظ ، أو المدح والذم ، ما يؤكد على أهمية ذلك البحث السياسى فى فنون الحكم بغض النظر عن شخصية مكيافللى وبيئته الاجتماعية .

إن فكر الفليسوف هو مولد نشأته وبيئته ، وفكر كل باحث فى أى مجال للمعرفة والعلم إنما ينبثق من انعكاسات البيئة الاجتماعية والثقافية والحضارية المحيطة به، وهذا ما يؤكده علماء النفس والتربية والاجتماع إلى جانب الفلاسفة. وبناءاً على ذلك فإن الأحداث التى وضحت وظهرت فى عصر مكيافللى ساعدته على تكوين خبراته ومعارفه فى مجال السياسة والدبلوماسية . ولذا نبع فكره والدوافع التى أحاطت بهذا الفكر ، ويمكن استنتاج تلك الدوافع متمثلة فى :

أولاً : تمسكه وارتباطه بالواقعية فى تحليله السياسى ونظام الحكم فى الدولة ، والألتزام بالضرورة شبه الموضوعية فى الإثبات والتدليل والبرهنة على معطياته مضافاً إليها خبراته السياسية وقراءاته التاريخية . ومن ثم نظر إلى الطبيعة البشرية نظرة تشاؤمية فيها من السخرية والتهكم ما يجعل من وصفه لها إبنا عاقاً أو إنساناً لا يعى مفهوم الحياة ، فالحقد والشر والتردد والزيف والجبن والجشع والمنفعة المادية الذاتية والمصلحة الشخصية والأثرة ، وغيرها من سمات أتسم بها ذلك الانسان وكينونة طبيعته ، نتج عما أرتآه وأدركه مكيافللى فى عصره من إقطاع وحروب وهدم سياسى واستعمار واحتلال ومرتزقة من الجنود لا يعرفون سوى النهب والسلب ، وغيرها من صفات ذلك العصر مما دفعته وحَدَت به لثورة ذاتية داخلية انعكست على

---

(١) د. علاء حمروش : تاريخ الفلسفة السياسية ـ (مرجع سابق) ـ ص ١٠٧ .

أسلوبه وأفكاره ، فكانت دعـوته إلى كل الإيطاليين أن يتـجنبـوا تلك الصفات أو الخصال اللا أخلاقية بالتحول والتغير والالتفاف تجاه الحاكم فيخلصوا له ويحبونه ويحترمونه وأن يقفوا حراساً أقوياء فتتوحد مدنهم ودويلاتهم في إطار وحدة وطنية وقومية .

ثانياً : أن إيطاليا في مطلع العصور الحديثة ق ١٥ ، ١٦ كان الفشل السياسي تجاه الحكم والسلطة يرثى له ، حيث تدخل رجال الكنيسة في شئون الحكم وترأسوا البلاد من خلال كونهم مخولين من قِبَلِ اللّه في تسيير شئون الناس إلا أن ذلك كان وبالاً على إيطاليا حيث انقسمت المدن الإيطالية على ذاتها وأصبحت مطمعاً للفرنسيين والألمان والأسبان فأحتلوها ونهبوا ثرواتها ، إلى جانب تفشي الإقطاع والاستبداد والتفرقة والانقسام فيما بين شعوبها . ولذا كانت البابوية سبباً في هذه التفرقة ، وكانت عقبة في وجه الوحدة الإيطالية ، فكان ذلك دافعاً قوياً للدعوة والنداء ـ أيضاً ـ للوحدة الوطنية الإيطالية .

(فيقول مكيافللي عن ذلك الوضع : « إن الإيطاليين مدينون للكنيسة وقساوستها بقلة تدينهم وتدهورهم الأخلاقي ونحن مدينون لها بأكثر من ذلك بانقسام إيطاليا وضعفها » لذلك فقد كان حكم مكيافللي يدور حول تكوين دولة موحدة قوية تقضي على الفوضى القائمة في بلاده) [1] .

لقد كان مكيافللي يريد لبلاده الخير والقوة من خلال حاكم ذو ولاء لوطنه ، ونظام سياسي يفرض سيطرته ويحكم البلاد بدون تدخل رجال الدين في شئون الحكم والسلطة ، فتصبح إيطاليا ومدنها آمنة مستقرة .

---

(١) د. أميره حلمي مطر : الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٨٧ ـ ط ٤ ـ ص ٨٦ .

السياسة سياق أخلاقى :

الباحث فى فلسفة السياسة تواق دائماً لمعرفة ماهيتها ومفهوم السياسة فى ذاته ، وأهدافها وأسلوبها ومناهجها ، ذلك لكونها دراسة اجتماعية ومدنية تقوم على منطوق علاقة المجتمعات بين بعضها البعض الآخر ، ومدى التفاعل بين أفراد المجتمع الواحد ومؤسساتهم المنظمة لتلك العلاقات والتفاعلات سواءاً من خلال نظام الحكم أو القانون أو الدستور .

لقد ظهرت الأبحاث والدراسات العديدة فى العلوم السياسية تأكيداً لدور السياسة على النطاقين المحلى الإقليمى والدولى العالمى ، ومن ثم كان لزومها قاعدة ضرورية لقيام أى مجتمع بشرى فى هذا العالم الإنسانى المدنى بطبيعته ، كما وصفه أرسطو من قبل .

ويمكن استعراض بعض التعريفات التى تعبر عن مفهوم السياسة Politics وعلم السياسة وفلسفة السياسة : (فعلم السياسة Political Science هو العلم الذى ينظم شئون المجتمع سياسياً ويحدد علاقات الفرد بالدولة وعلاقات الدول بعضها ببعض فى الأسرة الدولية ، وهو علم له أسس فى تفاعل الأفراد مع الدولة. وهو فن كل رجل سياسة يراعى فى مباشرته مهمته واتجاهاته ، والعلم والسياسة هو استخدام العلم والتنظيم السياسى فى بناء الدولة ، والعلوم السياسية هى مجموعة المواد التى توصف بأنها علم السياسة ، مثال ذلك : النظرية السياسية ، والعلاقات الدولية ، الإعلام والدعاية ، العلاقات العامة ، القانون العام والدستور ، التاريخ السياسى والقانون الدولى .. الخ) [1] .

أما فلسفة السياسة Political Philosophy فيعرفها « دى كرسبنى » بقوله :

---

(١) د. أحمد سويلم العمرى : معجم العلوم السياسية ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٥ ـ ص ١٢٥ .

« إن فلسفة السياسة هى بناء منطقى متماسك ينبغى أن ننظر إليه أولاً وقبل كل شىء فى ضوء العلاقات بين مكوناته الفكرية التى تستهدف كشف جانب معين من الوقائع » [١] .

ويعرف ليوشتراوس Leo Strauss فلسفة السياسة فى مؤلفه « ما هى الفلسفة السياسية ؟ » :

(« بأنها المحاولة الحقيقية لمعرفة الطبيعة السياسية للأشياء ولمعرفة النظام السياسى الفاضل ») [٢] .

وهذا يعنى أنها دراسة تهتم وتنصب على أفضل النظم التى تستطيع أن تمسك بزمام الأمور داخل الدولة ، تلكْ التى يعايشها المواطن ويتفاعل معها كالضرائب والقوانين والمحاكم والشرطة ، وعمليات الحرب والهدنة وغيرها . ثم يقول شتراوس أيضاً : (« إن العمل السياسى هو بداية الفلسفة السياسية باعتبار أنه ينطوى دائماً على توجه ضمنى نحو التعرف على طبيعة المجتمع الصالح الذى هو الخير الأقصى فى مجال السياسة ... إن الفلسفة السياسية ببساطة هى التناول الفلسفى للظواهر السياسية ») [٣] .

(إنها دراسة صورة الدولة والأجهزة والمؤسسات التى تعمل الدولة عن طريقها ... ، كما أنها علم يهتم بوصف وتفسير المؤسسات والتصرفات السياسية... وعلم السياسية هو الدراسة المنظمة لعمليات الحكم بتطبيق المنهج العلمى على الأحداث والمواقف السياسية) [٤] .

---

(١) دى كرسبنى / كينث مينوج : أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ـ ترجمة ودراسة / د. نصار عبد الله ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٨ ـ ص ١٥ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٥٠ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ٥٢ .

(٤) د. عبد الكريم أحمد : أسس النظم السياسية ـ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتب بجامعة القاهرة ـ ١٩٧١ ـ ص . ص ١١ ، ١٢ .

« ويعرفها دوفرجير Duverger : بأنها علم القوة وتنظيمها فى المجتمعات » [1] .

(ويرى كل من لازويل Lasswell وكابلان Kaplan بأن علم السياسة هو دراسة تشكيل السلطان والمشاركة فيها ، باعتبار أن السلطان معناه فرض إرادة على إرادة سواءاً كان ذلك باستخدام أساليب إقناعية أو أساليب إرغامية) [2] .

هذا يدل على أن السياسة تعبير عن السيادة والسيطرة من الحاكم تجاه المحكومين بأستخدام أسلوب الإقناع أو القوة والضغط ، وكلها وسائل تهدف إلى تنظيم الدولة والمجتمع .

(فالسياسة بالمعنى الواسع للكلمة هى العلاقة بين الطبقات وبين الأمم وبين الدول ، وهى نضال الطبقات فى سبيل قيادة المجتمع ، ومن أجل سلطة الدولة وإدارة نشاطها) [3] .

واقع الأمر يؤكد على أن هذه التعريفات المتعددة وغيرها تكشف عن أن السياسة لا تقتصر على كونها علم يقوم على المعرفة العلمية والموضوعية لنظم الحكم ومؤسسات السلطة ، ولا تقتصر أيضاً على كونها فلسفة تتطلع لطبيعة نظام الحكم الأمثل والغايات والأدوار التى ينبغى أن تنهض عليها الدولة فى أى مجتمع متحضر متمدين ، بل أكثر من ذلك أنها دراسة منهجية تقوم على الاستقراء والمقارنة ومنهج الاسترداد ، لتضع فروضها والتحقق منها للتوصل إلى التعميمات السياسية .

إن فلسفة السياسة تنبع من المجتمعات الإنسانية لتنظمها ، فهى تتضمن العلاقات الاجتماعية وفنون السيادة والسلطة ، وتمثل القوة والقدرة على الفعل

(١) الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس : (مرجع سابق) ـ ص ٣ .

(٢) د. محمود اسماعيل محمد : دراسات فى العلوم السياسية ـ القاهرة ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ ١٩٧٢ ـ ص ١٩ .

(٣) د. علاء حمروش : تاريخ الفلسفة السياسية (مرجع سابق) ـ ص ١٤ .

فى إطار ديناميكى منظم لتهدف فى النهاية إلى رقى الإنسان وسعادة المجتمعات وخيرها وقيمها الأخلاقية وحضارتها الإنسانية . ويتساءل الباحث عن موقع ومضمون الفكر السياسى عند مكيافللى Machiavelli فى ق ١٦ من خلال تلك التعريفات والمفاهيم السياسية ، وقد أستنتج أن أسلوبه السياسى استقاه من الواقع الخبرى من شئون السلم والحرب ، والعلاقات الدولية ـ بصفته كان رجلاً دبلوماسياً ـ إلى جانب نهجه الاسترادادى (التاريخى) الذى يستند إلى الأحداث التاريخية التى وقعت ، سواءاً فى الدول الماضية شرقية أو غربية أوروبية ، فى المدن والدويلات الصغيرة ، وممثلى تلك الدول أو المدن من أبطال وعظماء ، أو أمراء فاشلين ووزراء منافقين ، كذلك استناده للعهد القديم فى القسم الأول من الإنجيل أو الكتاب المقدس ، من هذا النهج شبه المترابط ، استطاع أن يجعل من السياسة قوة تشيد الدولة على أساسها ، وتنهض لتنظيم شئون محكوميها ورعاياها . ويعلق كريستيان جاوس Christian Gawess فى مقدمة كتاب (الأمير) بقوله : « لا ريب فى أن مكيافللى فى اعتباره للدولة على أنها قوة توسعية ديناميكية كان أقرب إلى الواقعية ، وإلى الواقع السياسى من كثيرين من مفكرى القرنين ١٩ ، ٢٠ فكان بهذا الاعتبار أكثر عصرية » [١] .

لقد أضحت صور القوة متعددة فى فكر مكيافللى فمنها القوة السياسية والقوة العسكرية ، وقوة إرادة الأمير أو الحاكم أو القائد ، وكلها تدور حول كيفية وضع نظام محدد للحكم فى إطار سياسى واقعى عملى (برجماتى) وبنظرة متأنية نحو رؤية ذلك المفكر السياسى لأسلوب القوة الحاكمة ، يقول هو عنها :

« وعلى كل من يرى ضرورة للاحتفاظ بإمارته الجديدة ينبغى أن تتم عن طريق :

---

(١) ميكافللى : الأمير ـ ترجمة / خيرى حماد ـ تعليق / بينيتو موسولينى ـ تقديم / كريستيان جاوس ـ بيروت ـ دار الآفاق الجديدة ـ ١٩٩٠ ـ ط ١٨ ـ ص ٤٤ .

١ـ تأمين نفسه ضد الأعداء ، ٢ـ كسب الأصدقاء ، ٣ـ الاحتلال بالقوة أو بالخدعة ، ٤ـ فرض الحب والخوف على رعاياه ، ٥ـ بسط الاحترام والتبعية على جنوده ، ٦ـ تدمير كل من يمكن له أن يلحق به الأذى ، ٧ـ إدخال البدع بدل العادات القديمة ، ٨ـ الاتصاف بالشدة والرحمة معاً ، ٩ـ الشهامة والتحرر ، ١٠ـ القضاء على المتطوعين القدامى وخلق قوة جديدة، ١١ـ اتخاذ التدابير اللازمة لارتكاب الجرائم فوراً ومرة واحدة بحيث لا يعود إليها مرة أخرى » [١] كذلك » ضرورة قيام الأمير بارساء قواعد بصورة طيبة ... ولعل خير هذه القواعد بالنسبة لجميع الدول قديمة وحديثة أو مخضرمة ، هو أن يكون لها قوانين جيدة وأسلحة قوية ،.القوانين توجد حيث تتوافر الأسلحة القوية » [٢] ثم يستطرد مكيافللى قائلاً :

« على الأمير أن لا يستهدف شيئاً سوى الحرب ، وتنظيمها وطرقها ، فالحرب هو الفن الوحيد الذى يحتاج إليه كل من يتولى القيادة ... ولا ريب فى أن ازدراء فن الحرب هو السبب الرئيسى فى ضياع الدول وفقدها ... فعلى الأمير أن لا يسمح لأفكاره بأن تذهب بعيدا عن مراس الحرب » [٢].

إستنتاجاً من تلك العبارات والتوجيهات الموجهة للحكام والقواد والأمراء ، إنما يلاحظ أن مضمون سياسة القوة داخل الدولة هو أسلوب أكثر عمقاً لإقامة نظامها وتثبيت دعائم وحدتها ، فالاستعداد الدائم لصد أى هجوم أجنبى ، ذلك بتكوين جيش قوى ، والتخطيط الدائب لفن الحرب وقدرة القائد على تبعية جنوده له وولاءهم لوطنهم ، إلى جانب ذلك أن يكون الحاكم ذا قدرة على

---

(1) Machiavelli (N.): The Prince - Great Books of the western world - Chicago - 1982 - 24 - Printing - P. 12 : 14 .

(2) Ibid : P. P 17 : 18

(3) IBID : P 21

ـ قارن : مكيافللى ـ الأمير ـ ص . ص ٩٤ : ١٠١

ـ قارن : مكيافللى ـ الأمير ـ ص ١١٧

ـ قارن : مكيافللى ـ الأمير ـ ص . ص ١٣١ : ١٣٢

إخضاع رعاياه ومحكوميه ، وهذه من السمات والخصال اللازمة والأساسية فى تكوين شخصية الأمير أو الحاكم أو الدولة بوجه عام .

ولو وجهنا النظر وأمعناه فى السياسة العالمية فى العالم المعاصر لأمكننا ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ الإقرار بمدى التفوق الهائل فى نظم وأساليب الحرب وفنون القتال ، أعنى التفوق العسكرى والقدرة الدفاعية والهجومية ، والاستعداد بالتالى لصد أى هجرم مضاد من أى دولة على أى دولة أخرى ، كذلك ظهور التكتلات والأحلاف العسكرية مثل حلف الأطلنطى الحالى ، وحلف وارسو السابق كذلك ظهور الأفكار الاستعمارية الخاصة بالاحتلال واعتصاب أراضى الغير بالقوة ، وإبادة شعوبها . وقد انتشرت هذه الظواهر فى القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ أى فى عصر مكيافللى وبعده ، بل حدثت قبله ولكن بصور أقل فى الإمكانية : نتيجة لتفوق وتطور العصور الحديثة والمعاصرة بالعلم والتكنولوجيا وأساليب التكتيك والتخطيط الحربى .

ويرى الباحث أن أفكار مكيافللى السياسية قد شرفت فى الأفق تهرول إلى عقول الساسة العسكريين والقواد والحكام فى العصور التالية عليه . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أنها أفكار بعيدة النظر ثاقبة المفهوم هادفة المعنى . لكن إذا كان هذا واقع فى العالم المعاصر ، عصر العلم والتكنولوجيا ، عصر الفضاء ، وعصر تكنولوجيا الاتصالات وعصر الكمبيوتر ، وعصر المعلومات ، فيبدو التساؤل: هل يمكن الحكم بأن مكيافللى كان يهدف الى التدمير والخراب ، وهدم الدول بعضها للبعض الآخر ، فى نفس الوقت الذى كان فيه يمقت الاحتلال الفرنسى والأسبانى ، والألمانى لإيطاليا ومدنها ؟

هل تؤكد تعبيراته وأمثلته التاريخية عن سياسة القوة فى الدولة على أهمية استخدام القوة ذاتها أم استخدامها كأسلوب للهدم والتدمير ؟ !.

والتساؤلات فى هذا الشأن كثيرة عن مدى تأثير مكيافللى وخاصة فى مؤلفه « الأمير » The Prince على دول العالم المعاصر ، ويعتقد الباحث بناءً على ذلك أن اختلاف الفهم للغير ـ نتيجة تغير عوامل الزمان والمكان ـ قد يكون له وجهتى نظر محددتين :

الأولى : أن تكون أدنى للفهم المعاكس وللريبة فيه ، فتصبح ترجمة وتعبير غير مرضى للاستخدام الأمثل كأسلوب للحياة ، بمعنى الاستناد إلى ذلك الفهم كغاية لتحقيق وسيلة مما قد يودى بأصحابه إلى غير ما يحمد عقباه ، فيتحول الإنسان فى أخلاقياته وغاياته فى الحياة إلى النقيض .

الثانية : أن يكون الفهم أدنى للترجمة الصحيحة والإدراك الواعى لآراء ذلك الغير مما ينعكس على أصحابه بالاستناد إليه كوسيلة وليس غاية فى السير قدماً نحو اتجاه الأفضل والارتقاء بالإنسان نحو التمسك بالقيم والمثل العليا الأخلاقية النبيلة والتى تمثل الإنسان المتحضر .

من هنا اختلفت التفسيرات حول الفكر السياسى المكيافللى فمنها السلبى ومنها الإيجابى ، ولكن يمكن القول بأن بأفكار ذلك السياسى لم يكن داعية للسلام أو داعية للحرب ، وإنما تعنى ـ استنتاجاً ـ أن السياسة العالمية نسبية ولم تكن حقيقة مطلقة حيث تختلف من سياسة الفرد إلى سياسة الدولة الواحدة ، إلى سياسة النظم الدولية الفردية منها والجماعية ، واختلاف الظواهر السياسية من حيث المدى والتأثير ، وغيرها من اختلافات ومتغيرات ، ومن ثم فإن سياسة مكيافللى ـ إعتقاداً ـ واضحة المعالم ليس فيها من التجريد الميتافيزيقى أو ماوراء الواقع ما يشوبها وإنما حدث الاختلاف فى تحليلها من حيث الفهم والتطبيق الفعلى لها ـ إن لم يكن فى عهده ـ ففى العهود والقرون التالية عليها .

إن محاولته السياسية دعوة وتوجيه نحو اتباع السبل المختلفة لتثبيت أركان الحكم ومقاعد الحكام فى الدول ، ووضع السياسات العامة ـ بالمفهوم المعاصر ـ لفلسفة الحكم والدولة . إلى جانب ذلك يعتقد الباحث أن أسلوب السخرية والنقد لأفكار مكيافللى السياسية وآراؤه لا يقلل من شأن تلك الرؤية السياسية الواقعية ، ويقول مكسى Maxay مؤكداً هذا الأعتقاد :

(« إننا فى دائرة السياسة وشئون الحكم لا نعرف إلا مبدأ واحد أو معيار وحيد نحكم به على العقل ، هذا المبدأ أو ذلك المعيار هو النتائج التى يحققها الفعل فإذا كانت النتائج مفيدة كان الفعل صائباً وإذا كانت غير مفيدة فليس ما يدعو للعجب إذاً سمعنا أن رجال الدين والأخلاق قد هاجموا مكيافللى ، لقد كان مكيافللى رجل دولة ، وليس رجل أخلاق أو رجل دين ، كانت بغيته توحيد إيطاليا الممزقة بالقوة والعنف ») [1] .

بهذه النظرة البرجماتية العملية التى ساقها « مكسى » استطاع أن يؤكد الدور الواقعى العملى الذى لعبته الأفكار السياسية المكيافللية وكيفية تأثيرها فى العصر الحالى .

وبهذا أيضاً يمكن القول بأن مكيافللى يُعد مؤسساً للفلسفة السياسية الحديثة والمعاصرة ، ومفكراً عملياً حتى لو لم يجانبه ويحالفه الصواب فى بعض أدلته وآراءه التى توصف ـ بالفعل ـ باللاأخلاقية .

---

(١) د. على عبد المعطى / د. محمد على محمد : السياسة بين النظرية والتطبيق ـ الأسكندرية ـ دار الجامعات المصرية ـ ١٩٧٤ ـ ص ١٢٨ .

الغاية تبرر الوسيلة :

وضع مكيافللى مبدأ عملياً استنتاجاً للمتناقضات التى دارت فى عصره بل وفى العصور السابقة عليه ، حيث تدهورت شئون السلطة بإيطاليا نتيجة تدخل رجال الكنيسة فيها ، وتفكك الشعب وانقسامه على نفسه فظهر الاستبداد والظلم، ومن هنا كانت السمات التى وصف بها الناس ما هى إلا دليل على أخلاقياتهم وسلوكياتهم التى تعد فى ذاتها لاأخلاقية كالحقد والأنانية وبيع أنفسهم من أجل منفعتهم ، وغيرها ، إلى جانب ذلك كله أنه لم يوجد قائد قوى يحمل فى امكانياته السيطرة وحماية البلاد من المحتلين وتوحيد مدن إيطاليا أو دويلاتها . من ذلك أراد مكيافللى أن يقول « وفى أعمال جميع الناس ولا سيما الأمراء ، وهى حقيقة لا استثناء فيها أن الغاية تبرر الوسيلة » (١).

بمعنى أنه لكى نصل إلى أهدافنا وغاياتنا ينبغى أن نضع كل الوسائل والسبل الممكنة والمحتملة ، فصدق النتائج سيكون أكبر شاهد على كون صدق الفعل والعمل ، وهذا التحقق لن يتأتى إلا بوسائل عملية واقعية متعددة ، من ثم تدرج مكيافللى فى وسائله العملية لتحقيق غايته أيضاً العملية والواقعية ، فمنها الوسائل الأخلاقية ومنها اللاأخلاقية وفى هذا يقول :

« إننى أعتقد تماما أن كل إنسان سوف يوافقنى على أنه خير الأمير أن يستغل من الصفات ما يشاء فى سبيل رفعته ، غير عابىء بأية قيمة أخلاقية أو دينية ، فهناك من الفضائل ما قد تؤدى إلى تدوره وانهيار حكمه ، كما أن هناك من اللافضائل ما قد تؤدى إلى ازدهاره ورفعته » (٢).

« إن على الأمير أن يكون كريماً وبخيلاً حسب الحالة ، قاسياً وحليماً تبعاً للظروف ، ولكن إذا ما تساءلنا أن أخيراً للأمير أن يكون محبوباً أو مرهوب

---

(1) Machiavelli: The Prince - P. 25

ـ قارن الأمير : (الترجمة العربية) ص ١٥١ فصل ١٨

(2) Ibid : P 22

ـ قارن : السياسة بين النظرية والتطبيق ـ (مرجع سابق) ص ١١٦

الجانب ، فإن الإجابة قد تكون أن يتسم بكلاهما ، ولكن لما كان من الصعب على الفرد الواحد الجمع بينهما أى أن يكون محبوباً أن مرهوب الجانب معاً ، فإنه يستحسن أن يكون مرهوب الجانب » (١).

« إن الأمير الذى يرغب فى المحافظة على ذاته لابد أن يتعلم ألاّ يكون دائماً على خلق ، بل أن يكون كذلك أو عكس ذلك تبعا لما يتطلبه الموقف ، كما أنه ليس فى حاجة لأن يخشى من التعرض للوم لارتكابه تلك الرذائل التى بدونها تكون المحافظة على دولته صعبة » (٢).

إذاً كى يظل القائد أو الحاكم محتفظاً بسيطرته على الحكم يجب أن يتسم بسمات أخلاقية و لا أخلاقية مستخدماً ومستعيناً بوسائله الذاتية ، وهذا ما أكده مكيافللى Machiavelli أيضاً بقوله « على الأمير أن يخاف من ناحيتين : **الأولى** داخلية وتتعلق برعيته ، **والثانية** خارجية وتتعلق بالدول الأجنبيه . وفى وسعه أن يدفع عن نفسه عدوان الأجنبى بحيازة الأسلحة القوية والأصدقاء المخلصين ، ومثل هؤلاء الأصدقاء يكثرون ، إذا توافر له السلاح والقوة ... أما بالنسبة لرعاياه فإن الخطر يظل ماثلاً فى تآمرهم عليه بصورة سرية ، وهو ما يستطيع الأمير وقاية نفسه منه تماماً ، ذلك بتجنب التعرض لكراهيتهم واحتقارهم والحفاظ على رضاهم من معاملته » (٣).

وفى هذا توجيه إنذار للحاكم أو القائد باتخاذ التدابير اللازمة تجاه أعدائه من الداخل ومن الخارج ، حتى يمكنه بدوره السيطرة على مقاليد السلطة والنهوض بشعبه أيضاً ، وهذا ما تعمل به كل الدول فى العالم الحديث والمعاصر حيث إستخدام وإنتاج الأسلحه القوية أو إستيرادها من دول أخرى لحماية أراضيها

---

(1) Ibid : P 24 ـ قارن الأمير : (الترجمة العربية) ص . ص ١٤٣ ، ١٤٤ فصل ١٧

(٢) الأمير : (الترجمة العربية) ص ١٣٦ فصل ١٥ . .

(3) Ibid : P. 26 ـ قارن : مكيافللى ـ الأمير (الترجمة العربية) ص. ص ١٥٣ ، ١٥٤ فصل ١٩

وشعبها من أى محتل أو عدو غادر ، الى جانب استخدام القوة ـ كلما اقتضت الضرورة ـ ضد أفراد شعبها مع وجود قانون ينظم علاقات الأفراد داخل دولهم وذلك يعد أفضل ممثل لاستمرار العلاقة بينهم .

إن أية دولة فى العالم تحتاج للأمن الداخلى والخارجى ، هذا شىء أو ظاهرة طبيعية ، ومن ثم لم تكن رؤية وإنذار مكيافللى للأمير أو الحاكم إلا بمثابة تأمين وحماية للدولة والحكم ونظامه ككل . من ناحية أخرى أوصى مكيافللى بالاستناد على عدة وسائل أخلاقية ينبغى للأمير أو الحاكم أو الدولة الارتكاز عليها سواءً فى حكمها المونارکى (الفردى) أو الجماعى ، فقال «الأمير العاقل هو من يتبع لمجلسه حكماء الرجال ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية فى الحديث إليه ومجابهته بالحقائق ... ولكن عليه أن يسألهم عن كل شىء ، وأن يستمع إلى آرائهم فى كل شىء ، وأن يفكر فى الموضوع بعد ذلك بطريقته الخاصة ، وعليه أن يتصرف فى هذه المجالس ومع كل من مستشاريه بشكل يجعله واثقاً من أنه كلما تكلم بصراحة وإخلاص كلما كان الأمير راضياً عنه ...»[1] .

هذا يدل دلاله واضحة على أن الحاكم أو الدولة يجب أن تستخدم مجالس الشورى أى استشارية لمشروعية إتخاذ القرارات لأنها لازمة لزوم استمرار بقاء الحاكم أو الدولة فكليهما يحكم فى سياق ونظام ، وفى هذا أيضاً يدل على تبادل الثقة وتوافرها ـ إلى حد ما ـ بين الحاكم ومستشاريه أو الهيئة الاستشارية التى خصصها كصفوة المجتمع ، ومن ثم إعطائهم حرية الرأى والفكر ، والتعبير عن قضايا الدولة وشئونها ، وعلى الدولة أو الحاكم أن يتخذ القرار الملائم تجاه المشاكل والقضايا .

إلى جانب تكوين مجلس الشورى أو الهيئة الاستشارية داخل الدولة ، يجب عدم الاستعانة بالأجانب فى المساعدة والتدخل فى شئون الدولة ، وخاصة

---

(1) Ibid : P. 33

ـ قارن : نفس المصدر السابق ـ ص ١٨٤ فصل ٢٣

الجانب العسكرى ، لأن الأجنبى دائما تواق للنهب والسلب والنيل من تلك الدولة أو ذاك ، سواءً من خلال فرض الضرائب أو استغلال أبناء الوطن بتسخيرهم له أو استغلال ثرواتهم ، وفى هذا يقول مكيافللى :

« إن القوات المسلحة التى يعتمد عليها الأمير فى الدفاع عن ممتلكاته ، إما أن تكون خاصة به أو مرتزقة أو ردبفاً أو مزيجاً . وفى قوات غير مجدية وتنطوى فى وجودها على خطورة بالغة ، وإذا اعتمد عليها أحد الأمراء فى دعم دولته ، فلن يشعر مطلقاً بالاستقرار والاطمئنان . فهذه القوات لا تعرف النظام ولا تحفظ العهود والمواثيق ، تتظاهر بالشجاعة أمام الأصدقاء وتتصف بالجبن أمام الأعداء ، ولا تخاف الله ولا ترعى الذمم مع الناس ، والأمير الذى يعتمد على هذه القوات ، قد يؤجل دماره المحتوم ، إذا تأجل الهجوم الذى سيتعرض له ... إن الدمار الذى لحق بإيطاليا نجم عن شىء واحد ، وهو اعتمادها سنوات طويلة على جيوش المرتزقة » (١).

« لقد أقر الحكماء دائماً أنه ليس هناك أضعف من الإنسان الذى يعتمد فى قوته على قوة الآخرين . وقوات الإنسان [أى الحاكم] الخاصة هى تلك المؤلفة من مواطنيه » (٢).

إذاً إستناد حكام الدول بل والدول ذاتها بوجه عام على مواطنيها الذين يقطنون بأراضيها فى تكوين جيوشها للدفاع عنها أمر لا بديل عنه لأن مواطن الدولة دائماً وعلى الأكثر ، أفضل انتماءاً وولاءاً من أى فرد أجنبى مهما عظمت صداقته لدولة المواطن ومن ثم كانت القوانين والدساتير الدولية تؤكد على احترام مواطنى الدول ، لأنهم يشكلون مؤسساتها وتنظيماتها وجيوشها . إن فكرة مكيافللى السياسية هذه تنم عن بعد نظر صاحبها إن لم تكن فى عهده فى

---

(1) Ibid : P. 18 ـ قارن الأمير : (الترجمة العربية) ص . ص ١١٨ ، ١١٩ فصل ١٢

(3) Ibid : P. 21 ـ قارن : نفس المصدر السابق ـ ص ١٣٠ فصل ١٣

إيطاليا ففى العهود التالية عليه . فالبعض من الدول يستعين بالدول القوية ولكن من حيث تمويلها بالسلاح والمؤن وليس بالجنود ، وبعضها الآخر يستعين بالدول الأخرى من خلال أفكارها فحسب ، وبعضها الثالث قد تكون دول ضعيفة فتعتمد على الدول القوية أيضاً من حيث السلاح وكذا الجيوش بشرط النزوح عنها فور إنتهاء الحرب ، إلا أن توصل مكيافللى إلى فكرة الاعتماد على مواطنى الدولة من داخلها أفضل بكثير من الاستناد إلى الأجانب ، هى حكمة واقعية وعملية مستقاة من الواقع السياسى للدول قديمة وحديثة ومن ثم فهى جديرة بالالتزام والاحترام .

لقد استطرد مكيافللى لتحقيق غايته وأهدافه بالاستناد إلى الوسائل المختلفة، وأبان عن دور القائد أو الأمير وما ينبغى أن يتحلى به من صفات وما يجب أن يلتزم به فى خارج بلاده وداخلها ، أراد مكيافللى أن يطرق وسيلة الحرب ـ أعنى السلاح ـ فالسلاح قوة مادية لابد لكل دولة من توفيرها والاهتمام بها من أجل الدفاع عن نفسها ، فالقانون نفسه يحتاج لتنفيذه قوة السلاح ـ فى كثير من الأحيان ـ والحماية للممتلكات والثروات والأراضى أيضاً تحتاج إلى السلاح وغيرها من وظائف الدرع المادى . إلى جانب تثبيت الحكام فى مقاعدهم وعرشهم داخل الدولة ، يقول مكيافللى مخاطباً الأمير « لعل من بين الشرور التى يؤدى إليها الافتقار إلى السلاح هو تعريضك للمهانة والاحتقار ـ وعلى كل أمير أن يتجنب ذلك فالإنسان المسلح يختلف تماماً عن الإنسان غير المسلح ، فليس من المعقول أن نفترض أن المسلح ، يمكن بمحض إرادته ، أن يخضع لغير المسلح، أو أن الأعزل سيكون أميناً بين أتباعه المسلحين ، فهذا التابع يحتقره سيده، وذاك يشك فى ولاء تابعه وهكذا ينعدم الانسجام بينهما ، ولهذا فإن الأمير الجاهل بالمسائل العسكرية يتعرض إلى الكثير من المصائب ، وإلى اختقار جنوده ، بينما يشك هو بدوره فى ولائهم وإخلاصهم » [1].

(1) Ibid : P. 21

ـ قارن : الأمير (الترجمة العربية) ص ١٣٢ فصل ١٤

« عندما تفتقر الدولة إلى السلاح الكافى ، تنعدم القوانين الجيدة ، وعندما تكون جميع الدول المسلحة تمام التسلح تكون جميع قوانينها جيدة » [١].

« إن الحرب عادلة عند من يحتاجون إليها والسلاح مقدس حين تفقد كل أمل إلا فى السلاح » [٢].

واقع الأمر يؤكد على أن لاستخدام العقل والحس والحدس ، أهميتها فى إدراك بواطن الشعوب ومستلزماتها وشعور بأخلاقياتها وسلوكياتها ، إلى جانب الفهم الواعى لفنون الحرب وأهمية السلاح ، فى الحرب والسلم ، والقدرة على المعارك والقتال، وتكوين الجيوش المخلصة ، إلى جانب كيفية التحلى بالأخلاق النبيلة تجاه رعايا الحاكم أو الدولة، والتخلى ـ فى نفس الوقت ـ عن بعض القيم والمثل الأخلاقية. وكلها تحتاج من الحاكم أو الدولة فكر ثاقب ووعى جم حتى يمكنها تملك زمام الحكم وتسيير شئون محكوميها . ويذكر مكيافللى فى كتابه « المطارحات » Discourses تبريراً لغايته وهدفه النبيل مع اختلاف الطرق والأساليب والوسائل قائلاً :

(« فعندما يكون أمن الوطن متوقفاً على قرار يجب اتخاذه لا يكون هناك اعتبار للعدالة والظلم أو الرحمة والقسوة ، أو المجد والعار ، بل ينبغى طرح كل هذه الاعتبارات جانباً ، والاهتمام بقضية واحدة : ما هو الطريق الذى ينقذ حياة الوطن وحريته ») [٣].

---

(1) Ibid : P . 18

ـ نفس المصدر السابق ـ ص ١١٧ فصل ١٢

(2) Ibid : P. 21 .

ـ نفس المصدر السابق ـ ص ١٣١ ، فصل ١٤

(٣) نقلا عن : د. عبد الكريم أحمد : دراسات فى النظرية السياسية الحديثة ـ القاهرة ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ ١٩٧٣ ـ ص ٦٠ .

علمانية مكيافللى :

يؤكد الباحث على أن الأسلوب السياسى فى الفكر المكيافللى قام على محوريين أساسيين :

الأول : الوفاق مع الواقع العملى والذى وضح فى كيفية التعامل مع الأحداث .

الثانى : الغاية تبرر الوسيلة . ومن منطلق هذا المحور نتجت ونبعت فكرة جديدة وحديثة أضحت مداراً ومرتكزاً للنظم السياسية فى العالم الغربى الحديث والمعاصر ، بل وأمتد تأثيرها وأنعكاسها على البلدان الآسيوية والأفريقية ، العربية منها والغير عربية ، هذه الفكرة هى العلمانية أو العالمنية أو الانفصالية Séparation de L'église et de L'etat أى أنفصال الدين عن الدولة والسياسة وتعنى أيضا المذهب الانفصالى أو الانشقاقى Secularisme Or Separatism أى أنها إذاً تعنى (فصل الكنيسة عن الدولة ، وهو مبدأ بمقتضاه تعتبر الأديان السماوية متساوية ولا يفرض دين معين على المواطنين ، وهكذا يحرم على الدولة أن تأخذ بدين واحد وهو دينها ، تضطر المواطنين إلى أعتناقه والاعتراف به مع استبعاد الأديان الأخرى ، وقد تطور الوضع الآن فى معضم الدول ، فالدين فى ضمائر المواطنين والدولة لها نظمها التى يتعين احترامها فى غير نطاق الدين، واتجهت القوانين وجهة علمانية أى بفصل الدين عن الدول وبدأت فى فرنسا بقانون سنة ١٩٠٥) [١].

وتعنى (ذلك الإنسان الذى يهتم بشئون الدنيا بعيداً عن شئون الدين)[٢] ومن ثم إنصب مصطلح « العلمانية » على فصل الدين وشئون ومسائل العقيدة

(١) معجم العلوم السياسية : د. أحمد سويلم العمرى ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٥ ـ ص ١٤٧ .

(٢) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ المطابع الأميرية ـ ١٩٨٥ ـ ط ٣ ـ ص ٦٤٧ .
ـ أنظر أيضا : إسماعيل المهدوى : العقلانية الشاملة ـ القاهرة ـ ١٩٩١ ـ ص. ص ١١٤ : ١٢١ .

وما تتسم به من أخلاق وقيم ومثل عليا ، عن شئون الدنيا وما تتضمنه من علوم فيزيقية ورياضية وكل صنوف الثقافة والمعرفة البعيدة عن الدين . وأصبح المجتمع الإنسانى فى أى دولة من العالم جامع لتيارين إما تيار دينى أثنولوجى يتمسك أصحابه بالنصوص السماوية والعبادة ، أو تيار دنيوى علمانى يتجه نحو أفكار التقدم والتحضر من خلال العلم والتكنولوجيا أى التطبيق العملى له ، دون استخدام للتفسيرات والعبادات الدينية ، وقد يكون للتيار الثانى ـ فى العالم المعاصر ـ له الغلبة والإكبار . إن مصطلح العلمانية قريب جداً من مفهوم ومصطلح « الوضعية » الذى أنتشر فى ق ١٩ على يد أوجست كونت Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) إلا أنه ـ من ناحية أخرى ـ من المعلوم لكل بنى الإنسان المتعقل والملتزم أن العقيدة والدين مرتبط بالمبادىء الأخلاقية لأن جوهره ومضمونه قيم ومثل عليا سامية ترتقى بالإنسان تواصلاً باللّه الخالق .

أما أفكار ومصطلحات : الدولة ، النظام السياسى ، نظام الحكم ، القوانين الوضعية ، كلها من صنع الإنسان ، إن لم يكن قد استقاها بطريق مباشر أو غير مباشر من أسس العقائد ، إلا أن المصطلح الجديد « العلمانية » قد تركز على فصل الشق الأول أى الدين . والأخلاق عن الشق الثانى وهو الدولة والسياسة ونظام الحكم ، وأيضا عن العلم ومقوماته وفروعه فظهر ما يسمى « بالدولة العلمانية » Séparation state أى الدولة الدنيونة ، وظهر أيضاً مصطلح « الدولة القومية Nationality state والذى انصب على الاستقلال السياسى كأساس للتنظيم الإجتماعى والمدنى بدلاً من دين تفرضه الدولة على شعبها .

وعن أسس تلك الدولة العلمانية يمكن إيضاحها على النحو التالى :

(أولاً : حق المواطنة كأساس للانتماء .

ثانياً : أن الأساس فى الحكم يكون للدستور ، لأنه يساوى بين جميع المواطنين ويكفل حرية العقيدة دون محاذير أو ضوابط أو قيود .

ثالثا : أن المصلحة العامة والخاصة هى أساس التشريع .

رابعا : أن نظام الحكم مدنى يستمد شرعيته من الدستور ، ويسعى لتحقيق العدل من خلال تطبيق القانون ، مع الالتزام بميثاق حقوق الإنسان)[1] هذا المفهوم عن الدولة العلمانية أمعن فى تطبيقه فى القرن ١٦ « نيقولا مكيافللى » حيث أنه تخلى عن الشق الأول المتمثل فى الإيمان الدينى ، والإطار الأخلاقى كى يقيم دولته الجديدة والتى يتطلع الى وحدتها بنظام سياسى صارم . ويقول فى ذلك فى مؤلفه « المطارحات أو الأحاديث » (« أن ديناً يجعل السعادة الكبرى فى الخضوع والضعة واحتقار عروض الدنيا ... ويبدو لى أن هذه المبادىء تجعل الناس ضعافاً متخاذلين وتدفعهم إلى الوقوع فريسة سهلة لذوى الأغراض السيئة... نحن الإيطاليين مدينون لكنيسة روما وقساوستها بأننا صرنا لادينيين وسيئين ، بل أننا مدينون لها بدين أكبر ، دين سيكون سبباً فى دمارنا ، وهو أن الكنيسة جعلت وطننا ، ولا تزال تجعله ، منقسماً ») [2].

« وحين أتدبر كيف حدث أنه فى تلك الأيام الخالية ، كانت الشعوب أكثر حباً للحرية منها فى هذه الأيام ، فإنى أعتقد أن سبب ذلك هو عين السبب الذى يجعل الناس اليوم أقل حيوية ، وهو فى إعتقادى الاختلاف بين تعليمنا وتعليم القدماء ، وهو نتيجة للفرد بين ديانتنا وديانة القدماء . فديننا قد كشف لنا عن الحق وهدانا إلى طريق الصواب وتأسيساً على ذلك جعلنا أقل تقديراً لشرف الدنيا ، بينما نجد أن الوثنيين ، بفضل تقديرهم العظيم للدنيا وإعطائهم فيها خير ما عندهم ، كانوا أكثر حيوية فى اعمالهم ... وحين يطلب منا ديننا أن نتصف بالقدرة الداخلية على الأحتمال فهو يؤثر أن تكون هذه القدرة على احتمال العذاب وليس فى القيام بعمل شىء إيجابى . ويبدو أن هذا المنهج فى الحياة إذاً

(١) د. فرج فوده : حوار حول العلمانية ـ القاهرة ـ بدون اسم الناشر ـ ١٩٩٣ ـ ص ٢٦ .

(٢) نقلا من : د. عبد الكريم أحمد ـ دراسات فى النظرية السياسية الحديثة (مرجع سابق) ـ ص ٦٢ .

قد أضعف العالم وسلمه للأشرار ... ومع ذلك فرغم أن العالم قد غدا مختنثا والسماء لا تحارب دفاعاً عن الضعفاء ، قد وصلنا إلى هذه الحالة نتيجة لتفاهة الرجال الذين فسروا ديننا وفقاً لروح الخمول وليس وفقاً لروح القوة . فلو أنهم فكروا فى أن ديننا يسمح لنا بالدفاع عن الوطن لقدّروا أنه يحضنا على حب الوطن وإجلاله وأن نعد أنفسنا للدفاع عنه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا »)[1].

إن ما يمكن استنتاجه وتحليله ـ لهذه الآراء المكيافللية ـ هو أن الدين كان عقبة فى إقامة الوحدة الوطنية الإيطالية ذلك راجع الى تفسير رجال الدين أى رجال الكنيسة لمضمون العقيدة على أنها تقرب الإنسان من الله كلما تقرب إليه وآمن به ، مما انعكس على الناس بالكسل وعدم الاجتهاد فى العمل وشئون دنياهم مما أضعفهم وكان سببا فى تفرقهم وانقسامهم وانقسام مدنهم . ومن ثم كان مقت مكيافللى على رجال الدين الذين فسروا الدين خطأ فضللوا الناس وأبعدوهم عن التمسك بوحدة بلادهم ووطنهم . وهنا كانت دعوته إلى كل الإيطاليين وإلى كل قائد فيها بأن لا يركن إلى أمور الدين ولا يهتم بها من أجل إقامة دولة المدينة ، فى إقامة إيطاليا الموحدة . (أن المهم عند مكيافللى هو وحدة الدولة ووحدة الأمة ، واستشراء السلطة الروحية كفيل بأن يضعف قوة الدولة)[2].

لقد كان فصل الدين عن الدولة أمر واضح تماماً فى فكر مكيافللى السياسى مما يعبر عن علمانية وأسلوب علمانى واضحين . أما بالنسبة لفصل السياسة عن الأخلاق ، فقد اتضح هذا جلياً فى كتابه « الأمير » حيث وصف الأمير أو القائد بخصال متعددة تكشف عن قوته وغدره ودهائه وندالته وما إلى ذلك ـ كما أوضح الباحث من قبل ـ من صفات تحمل فى طياتها مدى

(١) نقلا من : د. لويس عوض : ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوربية ـ القاهرة مركز الأهرام للترجمة ـ ١٩٨٧ ـ ص ١٠٢ : ١٠٣ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ١٠٢ .

الحمق والتجنب الفعلى للفضائل والمثل الأخلاقية والإنسانية ، وتتحول بذلك إلى مجرد أخلاقيات اجتماعية نابعة من مجريات الأحداث وليست أخلاقيات نابعة من القيم الإنسانية الذاتية النبيلة والقيم الدينية الفاضلة » وهكذا يشخص مكيافللى العلة القائمة ويقترح الوسائل التى ربما تدفع الكارثة السياسية على حساب يقظة مستمرة وظلم يلبسه ثوباً أخلاقياً ... إن نظرته وإن مستها مثالية جمهورية غامضة ، تخلو من العقيدة الدينية وتعكس فى سطحية إفلاس إيطاليا السياسى فى عصر النهضة ، ومهما يكن من أمر فيجب أن يذكر لمكيافللى أنه يبدى إيجابية لم تعرفها العصور الوسطى ... إنه كان واقعياً ، وفى هذه الصفة كان منسجماً مع تطور عصره السياسى لا فى إيطاليا فحسب بل وفى الشمال أيضاً » (٢).

---

(١) باول (جون) : الفكر السياسى الغربى ـ ترجمة / محمد رشاد خميس ـ مراجعة / د. راشد البراوى ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٥ ـ ص . ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

الفصل الثانى

مؤثرات مكيافللى فى العصر الحديث والمعاصر

لقد كان لمكيافللى آثاره الواضحة فى العديد من المفكرين السياسيين وفلاسفة السياسة والقادة ، فمن الفلاسفة المحدثين توماس هوبز Hobbes ونيتشه Nietzshe (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) ومن الفلاسفة المعاصرين بوزانكيت Bosan-quet (١٨٤٨ ـ ١٩٢٣) وغيرهم ، ومن القادة كرومويل Cromwell (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨) وهو زعيم سياسى وعسكرى إنجليزى ، نابليون بونابرت Napoleon (١٧٦٩ ـ ١٨٢١) إمبراطور فرنسا والذى فتح العديد من دول أوروبا، ونستون تشرشل Winston Churehill (١٨٧٤ ـ ١٩٦٥) وهو سياسى وقائد إنجليزى ، وبينيتو موسولينى Benito Mussolini (١٨٨٣ ـ ١٩٤٥) زعيم إيطاليا الفاشية (*) ، هملر Himmler (١٩٠٠ ـ ١٩٤٥) زعيم ألمانى نازى ، أدولف هتلر Hitler (١٨٨٩ ـ ١٩٤٥) زعيم ألمانيا النازية(*) وقد أدت سياسته التوسعية إلى نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١ وغيرهم من القادة الذين تأثروا تأثراً بالغاً بالأفكار المكيافلية على الرغم من اختلاف الظروف السياسية واختلاف الزمان والمكان ، إلى جانب تأثر المذاهب السياسية والفلسفية كالماركسية والوضعية والبرجمانية كفلسفات واقعية . وعن أبعاد هذا التأثير فقد شمل :

(*) الفاشية : Fascisne مذهب سياسى شمولى أنشىء بإيطاليا عام ١٩١٩ ، وتقوم على الحكم الدكتاتورى وسياسة التوسع فى تكوين الإمبراطورية ، دون اهتمام أو احترام لحريات الأفراد . زعيمها ومؤسسها « موسولينى » كما تمجد الدولة ، فهى كل شىء ولا شىء خارجها ، بل هى واقع فكرى وأخلاقى .

أن لفظ الفاشية جاء من كلمة Fasces الرومانية وتعنى العصى التى كان اللكتور الرومانى يحملها أمام الرئيس الأعلى للدولة تعبيرا ورمزا للسيطرة والسلطة .

(*) النازية : Nazis حركة سياسية واجتماعية شمولية ، دكتاتورية وتوسعية ، تكونت من جماعة من العسكريين أطلق عليهم «الاشتراكيين الوطنيين » مؤسسها وزعيمها أدولف هتلر عام ١٩٢٠ ، وظهرت ملامحها فى كتابه «كفاحى» وهو مترجم إلى اللغة العربية فى بيروت .

١ ـ الصفات المتشائمة عن الطبيعة البشرية والتى قد وصفها مكيافللى من قبل .

٢ ـ صفات الحاكم أو الأمير أو القائد التى ينبغى أن يتسلح بها كى يقف على قدم الوثاق مع قدرته على كيفية إدارة بلاده وفق النظام الذى يضعه هو ، وكلها صفات تدور حول ـ كما ذكرنا سالفا ـ القوة وكيفية استخدامها ، الذكاء والفطنة والخداع .. وغيرها من صفات .

٣ ـ إن مكيافللى جعل سياسة الدولة كامنة فى نطاق القوة والضغط بحيث لا يقوم نظام الحكم إلا على أساس خضوع الغير والطاعة وفق قوانينها التى تضعها مستندة إلى قواتها المسلحة .

٤ ـ تنازل الشعب أو المواطنيين عن حقوقهم من أجل الحاكم الذى سينقذ حياتهم الاجتماعية والسياسية من الانقسام والتشتت وهو ما حدث فى إيطاليا ومدنها ، ولذا كانت بغية مكيافللى هى الوحدة الوطنية .

٥ ـ أن فكرة الغاية تبرر الوسيلة كانت بمثابة مبدأ تأثرت به السياسة العالمية حديثة ومعاصرة من أجل تحقيق مآربها ومخططاتها .

٦ ـ مفهوم فصل الدين عن السياسة ـ فى نطاق علمانى ـ يبرز أهمية الحكم ونظام الدولة السياسى ووظائفه كما ارتآه مكيافللى ومن تبعوه بعد ذلك .

هذه هى أهم الجوانب والأبعاد السياسية التى تأثر بها السياسيين فى مختلف دول العالم الحديث منها والمعاصر ، سواءاً بأسلوب منهجى منظم أو بأسلوب فلسفى مذهبى مباشر أو غير مباشر .

ويمكن تناول بعض نماذج من أولئك الفلاسفة المحدثين والمعاصرين نتيجة تلك المؤثرات السياسية المكيافللية .

أولاً : هوبز * والحاكم المطلق :

لقد صب هوبز اهتمامه السياسى وركز أفكاره فى مؤلف ضخم أسماه «الليفثيان » أو التنين * وهو مكون من أربعة أجزاء تشمل سبع وأربعين فصلا ، تضم مختلف آراءه السياسية والأخلاقية والدينية والسيكلوجية ، إلى جانب مؤلفه « عن المواطن » وتلك أراد من خلالها ـ إعتقاداً من الباحث ـ أن يثبت قدرة الإنسان على التكيف والتوائم مع ظروف البيئة والطبيعة المحيطة به ، فانطلاقاً من طبيعته البشرية التى وصفها هوبز بأن الإنسان أنانى ، نفعى ، لا يبغى سوى مصلحته الذاتية ، ذئب لأخية الإنسان ، فوضوى ميال للحرب والخديعة ،.

يميل للصراع والتنافس ، فيه شهوة ورغبة ، يكره المساواه بينه وبين الآخرين ، وتلك سمات سلبية تعد فى جوهرها لاأخلاقية ، إلا أنها تعد ناتجة عن حالة الطبيعة الأولى التى كان يعيشها الإنسان وسط مخاوف هائلة من قسوة الطبيعة ، فما كانت إلا أن تدفعه للكفاح والصراع من أجل البقاء والمحافظة على الذات ، فهى غريزة فى الإنسان ، إنطلاقاً من هذا كله أراد الإنسان أن يعدل من سلوكياته وأخلاقياته ، من أخلاقيات الشر والهدم والدمار والخوف من كل شىء، إلى أخلاقيات المدنى المتحضر الخيّر ، ذلك من خلال استخدامه لعقله وإرادته واختياره بعيداً عن الانفعال والعاطفة . هذا التدرج فى السلوك أدى بالإنسان إلى التنازل عن حقوقه من أجل العيش فى سلام واستقرار ، ذلك بأختيار ممثل عن

(*) **هوبز** : Thomas Hobbes (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) فيلسوف إنجليزى تعلم فى أكسفورد ، زار دول أوروبا ثلاث مرات مما كان له أثرة فى أن يجعله شبه موسوعة فلسفية ورياضية ، وفيزيائية ، حيث التقى بديكارت وجاليليو وبيكون ، وغيرهم . فلسفته عقلية مادية ، له عدة مؤلفات عن الحركة والأخلاق والسياسة والدين ، من أهمها (الليفثيان أو التنين ، وهو مؤلف سياسى ضخم، الطبيعة البشرية ، الهيئة السياسية ، مبادىء القانون Elemants of Law وعن المواطن) .

(*) **التنين** : حيوان برى وحشى قوى ، يعد إله أرضى يحكم كل شىء . وقد ذكر هذا اللفظ فى الإنجيل (الكتاب المقدس) فى العهد الجديد فى (رؤيا يوحنا اللاهوتى) فى الإصحاح الثانى عشر والثالث عشر . أما كلمة اللوياثان فهى عبرية ذكرت فى أسفار العهد القديم (سفر أشعيا ، وسفر أيوب) وتدل كليهما على الدولة القوية الحاكمة للأرض ومن عليها .

كل الجماعة البشرية التى تقطن مساحة من الأرض أعنى أقليماً محدداً يكون عنهم ممثلا للحكم ، حاكماً فرداً قوياً له السيادة والسلطة ، يقوم بينهم دون أن يكون طرفاً فى عقد تبرمه تلك الجماعة الإنسانية ، بحيث يكون له الحق فى التشريع والقضاء وتنفيذ ذلك التشريع ، ومن ثم أصبح حقاً مطلقاً فى إطار تعاقد اجتماعى Social Contract عقدته الجماعة الإنسانية دون أن يكون هو ملزم من جانبهم بشىء ، بل أكثر من ذلك له حق الملكية المطلقة إلى جانب حكمه المطلق ، حتى أصبح مفوضا من قِبَلِ الله فى حكم البشر على الأرض ، ومن ثم فُسرت الآية التى ذكرت فى الإنجيل : « إعط لقيصر مالقيصر وما لله لله » فسرت بأن يكون الأمر كله للحاكم ، فيقال : إعط قيصر ما يأمر به هو ، وإعط الله ما يأمر به قيصر أيضاً .

ولقد خالف « جون لوك Locke (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) أحد كبار ممثلى النزعة التجريبية والمذهب الحسى فى انجلترا ، رأى هوبز فى ذلك ، وجعل العقد الاجتماعى مكون من طرفين هما الناس والحاكم أو الجماعة البشرية والحاكم الذى اختاروه بحيث لم يعد حكمه حكماً مطلقاً بل أصبح مقيداً بنصوص التعاقد بينه وبين مواطنى الدولة . إذاً التحول التدريجى الذى ارتأه هوبز من حالة الطبيعة والفوضى وعدم الاستقرار وعدم الأمان إلى حالة التحضر والمدنية والنظام يُعد أهم أفكاره السياسية . واستنتاجا من تلك الأفكار يمكن توضيح أهم ما تأثر به هوبز من الفكر السياسى المكيافللى والمتمثل فى طبيعة البشر والقوة والحكم المطلق والعلمانية .

أولا : أن مارددده مكيافللى من قبل فى كتابه « الأمير » من صفات البشر والتى كانت فى مجملها صفات شريرة متشائمة ، فقد كرر « هوبز » تلك النظرة التشاؤمية ، وكليهما كانت نظرتهما نتيجة الظروف السياسية التى حدثت فى العصور الوسطى فى بلادهما ، إلا أن هوبز قد وصف البشر بتلك الصفات ، إفتراضا منه ، للوصول لنظام الحكم الأمثل ووضع قاعدة

أساسية لعقد اجتماعى هادفاً منه الوصول إلى جماعة إنسانية متحضرة مستقرة . والواقع يؤكد على أن كلاً من مكيافللى وهوبز أرادا هدفاً مشتركاً ألا وهو قيام دولة متوحدة ذات سيادة أى أنها كومنولث Commonwealth .

ثانيا : إتفق هوبز مع مكيافللى فى فكرة الحكم المطلق والملكية المطلقة للحاكم بحيث يكون له الحق فى تشريع القوانين واتخاذ القرارات بمفرده حتى ولو كان له مستشارين ، فهو السيد الحاكم ، ويؤكد « هوبز » ذلك بقوله : «أن الغالبية العظمى من الناس وافقت وأعلنت رضاها على أن يكون السيد الحاكم هو صاحب السلطة ، ومن لم يسبق له الموافقة فإن عليه أن يوافق الآن مع بقية الناس وأن يعترف مثلهم ، أن جميع الأفعال التى يصدرها الحاكم هى أفعاله هو ... فالسيد الحاكم هو المشرع ، وهو حر فى أن يصدر أو لا يصدر ما يشاء من قرارات وقوانين طالما يعتقد أنها فى صالح الجماعة ، وليس لإنسان الحق فى الادعاء أنه كان ضحية للظلم على يد السيد الحاكم ، لأنه سبق أن فوضه فى إصدار ما يشاء من قرارات ... وليس لأحد من المواطنين معاقبة السيد الحاكم بطريقة قانونية مشروعة لأنه سيكون ، فى هذه الحالة ، قد عاقب الحاكم على فعل قد خوله هو نفسه أن يقوم به » [1] .

ومن ثم على الشعب أى المواطنين عدم الثورة ضده أو الرفض لقراراته . ويستمر هوبز فى إثبات وتأكيد أحقية الحاكم فى السيادة والسلطة المطلقة داخل دولته بدون تدخل أى فرد أو مواطن من مواطنيها فى شئونه ، فيقول « يلحق بالسيادة أن يكون من حق الحاكم تحديد الأفكار والآراء والمبادىء والنظريات السيئة أو المكروهة ، والمبادىء والأفكار الصالحة المؤدية إلى السلام والتى ينبغى أن تنتشر بين الناس » [2] « إن السيد الحاكم هو الذى يستمع للمنازعات ويفصل

(1) Hobbes (T) : Levciathan - Chicago - Great Books - printing 24 - 1982 - P. 101 .
(2) Ibid : P. 102 .

فيها طبقا للقانون سواءاً أكان قانوناً مدنياً أو قانوناً طبيعياً إذ أنه بدون تنظيم التقاضى والفصل بين المنازعات لن تتحقق حماية المواطن من ظلم الآخرين»[1].

« للسيادة الحاكمة الحق فى إعلان الحرب وعقد السلم حسب ما تراه مع الأمم أو الدول الأخرى . أعنى أن تحدد متى يكون ذلك مناسباً للصالح العام ، وتحديد القوات التى يستدعيها ويقوم بتسليحها ، وفرض الضرائب والجباية على المواطنين . لأن قوة الشعب التى يدافع بها عن نفسه تكمن فى قواته المسلحة وتكمن قوة الجيش فى وحدته تحت إمرة قائد واحد ، وهو القائد الذى يعينه الحاكم »[1].

كل هذه الحقوق والواجبات التى خولها العقد الإجتماعى للحاكم إنما تؤكد على سيادته المطلقة فى الحكم والملكية والنظام السياسى فى الدولة . لذا كان هوبز يميل إلى أن أفضل أنواع الحكومات وأشكالها هو النظام الملكى . ويلاحظ أوجه التشابه بين هوبز ومكيافللى واضح وبيّن تماماً ، من حيث قوة الحاكم ، والحاكم الواحد ، والسيادة المطلقة على نظام الدولة ، على الرغم من أن الأخير لم يتحدث عن فكرة التعاقد إلا أنها كانت فكرة مضمرة وكامنة فى أحاديثه لأنه كان يذكر بأن على الشعب أن يختار حاكم قوى يمثله ويصدر القرارات والتشريعات بمفرده ، وهذا يعنى أنه يؤكد على الحكم المطلق فى إطار المونارکية (حكم الفرد الواحد) .

ثالثا : أن علمانية الدولة بفصل الدين عن شئون السياسة كانت واضحة عند هوبز، لأنه عارض كل من يقحم الدين فى أمور السياسة ونظام الحكم ، ورأى أن الكنيسة لا يمكن أن تكون لها سلطة عامة بل تستند فى شئونها هى على الحكومة المدنية . فالحاكم هو رئيس الكنيسة ، ومن ثم عارض هوبز كنيسة روما وعصمة البابا وسيادته للدولة ذلك لأنها تضع السلطة الروحية فوق السلطة الزمنية ، أما الواقع الحقيقى فى الدولة هو أن يتسيد

---

(1) Ibid : P. 103 .
(2) Ibid : P. 103 .

الحاكم المدنى السلطة ونظام الحكم فيها دون تدخل من الكنيسة أو رجال الدين .

« فالكنيسة هى جماعة من البشر تعترف بالديانة المسيحية ، وهى تتحد فى شخص السيد الحاكم فيأتمرون بأمره ويتجمعون لحكمه ولا يتجمعون بغير سلطته» (١) .

« أن الحكومة الزمنية والحكومة الروحية لفظان لم يظهرا إلى العالم إلا ليحدثا إزدواجية عند الناس بحيث يخطئون معرفة الحاكم الشرعى » (٢) .

إذاً فصل الشئون السياسية عن الدين ـ كما ارتأه هوبز ـ شىء أساسى فى تسيير نظام الحاكم المطلق ، وتأكيداً على علياء السلطة الزمنية وقدرتها على السيادة المطلقة وقد يكون فى وجهة نظره هذه تطرفاً بارزاً لأن الدين فى حقيقة الأمر له دور سلوكى وأخلاقى يساعد الحاكم على استمرار نظامه فى كيفية إخضاع المواطنين له ، وليس العكس . فهو يغرث القيم والمثل والفضائل من أجل قيام مجتمع أخلاقى خير متحضر واعٍ بنظام الدولة السياسى والاجتماعى . إلى جانب ذلك فإن تلك الأفكار والآراء فيها من الاستبداد ما يؤكد على الديكتاتورية المقنعة أو المستترة فى صورة الحاكم القوى صاحب السيادة المطلقة ، مما يدفع بالشعب إلى نشأة الصراع بينهم بل ونشأة الطبقية والصراع بينها داخل المجتمع الواحد ، وتنشىء الحقد الخفى تجاه الحاكم المستبد ، بل أكثر من ذلك تساعد على خلق الحروب الأهلية والتفرقة العنصرية داخل الدولة . ولذا أصبحت تلك الأفكار فى ذمة التاريخ السياسى ولا يؤخذ بها كأسلوب لشكل الحكومات المعاصرة (فإلى هذا الحد من الاستبداد يذهب هوبز ، وكأنه أراد أن يدعم الحكم المطلق بأنه يجعل منه حكم القانون الطبيعى ، وهو لم يفعل إلا أنه أحال ما كان واقعاً فى بلاده نظرية فلسفية ، ولكن الإنجليز لن يتابعوه ، ومن انجلترا ستعبر الديموقراطية البحر إلى القارة الأوروبية . اما فلسفته فما هى إلا المادية بكل سذاجتها كما عرفناها من عهد ديمقريطس وأبيقور) (٣) .

---

(1) Ibid : P. 209 . ـ قارن : د. إمام عبد الفتاح : توماس هوبز فيلسوف العقلانية ـ القاهرة ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ ١٩٨٥ ـ ص ٤٢٧

(2) Ibid : P. 238 . ـ قارن : إمام عبد الفتاح : توماس هوبز (مرجع سابق) ص ٤٢٧

(٣) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٦٩ ـ ط ٥ ـ ص ٥٧ .

ثانيا : نيتشه وإرادة القوة :

نيتشه Neitzsche (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) فيلسوف وشاعر ألمانى حديث عاش حياة ملؤها الألم والمعاناة مما انعكست على كتاباته وفلسفته العملية ، فأراد القوة والسلطان ونادى بالسيادة من أجل تحقيق ذاته كإنسان يبحث عن ترانسندنس Transcendence الإنسان (إنسان أعلى) . كان والده رجل دين مسيحى إلا أنه إتجه إتجاها مغايراً لحياة الرهبنة واللاهوت لأنها ـ كما يرى ـ حياة فيها ضعف ومذلة واستكانة وركون وتواكل إلى اللّه ، بل أكثر من ذلك أن المسيحية تساعد الضعفاء والمساكين وتناصرهم ، ولا تناصر الأقوياء والأغنياء ومن ثم رفض « نيتشه » التمسك بها وذهب للاستناد إلى الذات لإثبات ذاتها ، فالإنسان إله نفسه ، والإنسان النبيل القوى هو الإنسان الأعلى (السوبر مان) Super Human عقلاً وجسداً وقلباً ، وبه يتشكل العالم والتاريخ والحضارة (« إن العالم إنسانى والتاريخ إنسانى ، والإنسان موجود وهو ليس سوى إنسان .. إنه فى حال صيرورة دائمة .. إنه فى الحقيقة هو ذلك الموجود الذى يحيا فى الأطراف البعيدة ، الذى عليه أن يختار ذاته .. الإنسان الأعلى عبارة عن مستقبل لا يمكن اللحاق به أبدا ») [١].

ويقول نيتشه أيضاً (« إن الإنسان الأعلى سيكون لا إنسانياً وسوبر مان ... حيث ينبسط الإنسان ارتفاعاً وكبراً فإنه ينمو أيضاً عمقاً وهولا ... نريد إنسان يكون نموذجاً له قيمة أعلى ويكون أجدر بالحياة وأكثر ثقة بالمستقبل »)[٢] .

(*) كتابات نيتشه تميل إلى الأدب كثيراً وقد تمثلت فى : ١ـ نشأة التراجيديا ١٨٧٢ . ٢ـ إنسانى، إنسانى جداً ١٨٧٨ . ٣ـ الفجر ١٨٨١ . ٤ـ العلم المرح ١٨٨٢ . ٥ـ هكذا تحدث زرادشت ١٨٨٣ . ٦ـ أصل الأخلاق ١٨٨٧ . ٧ـ ما وراء الخير والشر ١٨٩٦ .

(١) جوليفيه (ريجيس) : المذاهب الوجودية ـ ترجمة / فؤاد كامل ـ القاهرة ـ الأنجلو المصرية ـ ١٩٨٢ ـ ص ٥٦ .

(٢) لوكاكش (جورج) : تحطيم العقل ـ ترجمة / إلياس مرقص ـ بيروت ـ دار الحقيقة للطباعة ـ بدون ت ـ جـ ٢ ـ ص ١٢٩ .

وللبحث عن هذا الإنسان علينا ـ كما يرى نيتشه ـ أن ننطلق من نظرية جديدة ، من مبدأ واقعي يربط بينه وبين العالم ، إنه مبدأ « إرادة القوة » The will of Power .

((إن الطبيعة الأساسية لنظام الحياة وجوهرها يتمثل فى حقيقة واضحة بذاتها ، إنها إرادة القوة ، فهى فى حقيقتها إرادة حياة . إنها واقعية لذا تعد نظرية جديدة ، تشكل حقائق التاريخ على مر العصور)) (١).

هذا المبدأ افترضه « نيتشه » ودعا إليه هو ، محاولة لربط الإنسان بواقعه ، لأن القوى هو الشخصية المبدعة المغامرة ، المخاطرة المتفانية ، إنه الشخصية الأخلاقية ، الخلاقة . إن الإنسان الأعلى الذى تمناه نيتشه من خلال إرادة القوة لم يكن موجوداً ولكنه أراد إن يوجد ويتحقق . لقد حبذ نيتشه حياة الأرستقراطيين ورفض الديمقراطية والأشتراكية ورفض مبدأ المساواة بين بنى البشر، فكان مناصراً للأمبريالية * الرجعية ، والحركة الإستعمارية المستندة لأسلوب القهر والقوة والسيادة . إلى جانب ذلك أنه نادى بأخلاق السادة والإنسان السيد ، ورفض أخلاق العبيد لأنهم ضعفاء جبناء ، أما السادة فهم أقوياء ذوات إرادة قوية، ويمكن أن نتسائل : ((ما الخير ؟ إنه كل ما يعلو فى الإنسان بشعور القوة وإرادة القوة ، والقوة نفسها . ما الشر ؟ إنه كل ما يصدر عن الضعف .

إن الضعيف الشخصية هو المضطرب التركيب الروحى ، العديم الوحدة ... رجل التساهل والوسط والمساومة ... يريد السلام والوفاق والمساواه والحرية ، يريد حياة المحافظة على البقاء أما القوى هو الذى تتجه فيه كل القوى متوترة نحو غاية واحدة ... أنه يمثل الطابع المضاد للموجود الكائن أقوى تمثيل ... أنه من يريد المخاطرة بكل شيء . فإرادة القوة هى مقياس القيم فى الحياة)) (٢).

(1) Richard and Alston : the problems of philosophy - London - 1978 - p. 212 .

(*) إمبريالية : Imperialisme هى طموح دولة قوية نحو الاتساع على حساب الغير سواءاً اتساعاً اقتصادياً أو سياسياً أو تجارياً من خلال التسلط العسكرى واحتلال القطر الآخر واخضاعه لتلك الدول القوية .

(٢) د. عبد الرحمن بدوى : الأخلاق النظرية ـ الكويت ـ وكالة المطبوعات ـ ١٩٧٥ ـ ص. ص ٢٨٢، ٢٨٣ .

اذاً فالقوة لدى الإنسان أضحت غاية فى ذاتها وليست وسيلة ، وتحقيقها له وسائله متمثلة فى البطولة والشجاعة ، الكفاح والنضال المستمر ، القهر والقسوة ، الحرب ، وغيرها مما يدخل فى نطاق القوة . (« أننى شعرت لأول مرة أن أقوى وأسمى إرادة للحياة لا يعبر عنها صراع بائس فى سبيل البقاء ، وإنما تعبر عنها إرادة الحرب ، إرادة القوة ، إرادة القلب ») (١).

إن إرادة القوة لم تكن – إذاً – إرادة الحياة بل هى الحياة ذاتها ، فدائرة الحياة بأقطارها وأوتارها ومركزها هى القوة فقط . فالأقوياء من الحكام والقواد والرؤساء والسادة ، هم السعداء والعقلاء . هم السادة فى الحرب والسلم لأنهم يملكون ولا يخضعون ، ولا يتملكون ، أنهم يثبتوا ذواتهم ووجودهم ليس بالتواكل والخنوع أو بشىء مغاير لطبيعتهم البشرية وإنما بأنفسهم وقوتهم . وهنا يذهب نيتشه إلى أن الناس فى أى مجتمع ينبغى أن يقسموا إلى طبقتين : الأولى: طبقة السادة ، والثانية : طبقة العبيد (« إن ثقافة عالية لا يمكن أن تولد إلا حيث توجد فى المجتمع طبقتان أى طائفتان متميزتان : الأولى طبقة من يشتغلون وهم طبقة العمل القسرى [العبيد] والثانية طبقة الموهوبون ذوى العمل الحر [السادة] ») (٢).

هذا يدل دلالة واضحة على أرستقراطية نيتشه وتعاليه الواضح تجاه الجنس البشرى أو المجتمعات الإنسانية (« ومن أراد الهدف أراد الوسائل أيضاً ، إذا أردنا عبيداً فمن الجنون أن نعطيهم تربية أسياد ») (٣).

ويرى نيشه أيضاً أن القواد فى الحروب يتمتعون بنزعة وراثية وتركيب وراثى بيولوجى يدفعهم للتفوق والانتصار (« فالمنتصرين فى الحرب وسلالاتهم ،

(١) هنرى توماس / دانالى توماس : المفكرون من سقراط إلى سارتر – ترجمة / عثمان نويه – القاهرة – الأنجلو المصرية – ١٩٧٠ ص ٤٠٦ .

(٢) لوكاكش : تحطيم العقل (مرجع سابق) – ص ١١٣ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ١١٦ .

يتفوقون عادة تفوقاً بيولوجياً على المنهزمين ، فمن المرغوب فيه حينئذ أن يملكوا زمام السلطة وأن يديروا الأمور فى اتجاه مصالحهم فقط ») [١].

وفى نطاق تلك الإرادة يظل الإنسان ـ بالتالى ـ فى توتر وقلق دائمين بل وفى صراع وتنافس بينه وبين قوى الطبيعة من كائنات ليس من أجل الحفاظ على بقائه إنما من أجل اثبات أنه موجود حتى لو لم يدم له البقاء ووافته المنيه ، فوجوده سيبقى أبدياً . وهذا هو جوهر الإنسان الأعلى الذى يسعى نيتشه الى تحقيقه . ويمكن الإعتقاد أن تلك الأفكار تعد أسلوباً سيكلوجياً فرويدياً يميل نحو ما رآه فرويد Freud (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م صاحب مدرسة التحليل النفسى فى ألمانيا) فى فكرة الأنا الأعلى Super-Ego وهو جانب لا شعورى فى شخصية الإنسان The unconscionsness يمثل القيم العليا فيه يحاول التوصل إليها انطلاقاً من الشعور (فالأنا الأعلى من حيث تكوينه هو جملة القيم والمعاير والمعتقدات والمبادىء الخلقية التى يستخدمها الفرد فى الحكم على دوافعه وسلوكه التى يهتدى بها فى تفكيره وأفعاله . ومن حيث وظيفته فى الشخصية ، يوجه وينقد ويوقع العقاب ، فهو بالتالى سلطة تشريعية قضائية تنفيذية فى آن واحد ... ومن حيث هو قوة محركة فإنه استعداد لا شعورى دافع مانع رادع مكتسب على أساس من الخوف والحب والاحترام)[٢].

إذاً فالأنا الأعلى مماثل للسوبر مان لأنهما يتمحوران حول بؤرة واحدة ألا وهى الإنسان .

كما أنهما يقومان على تحقيق المثل والقيم العليا الخلقية التى تؤكد وجوده وتثبت كينونته ، وهذا مادعا إليه نيتشه ، لكنه أراد تحقيق ذلك من خلال

---

(١) رسل (برتراند) : تاريخ الفلسفة الغربية ـ ترجمة / د. محمد فتحى الشنيطى / القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٧ ـ جـ ٣ ـ ص ٤٠٦ .

(٢) د. أحمد عزت راجح : أصول علم نفس ـ الأسكندرية ـ المكتب المصرى ـ ١٩٧٠ ـ ط ٨ ـ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

إرادة ليست إرادة حياة وإنما إرادة القوة . أن تلك الإرادة التى صاغها هى دليل التطور والتقدم وبناء الحضارات والتاريخ . لقد تبلورت عدة دوافع أساسية شكلت هذا التفكير وتلك الفلسفة ، قد يكون تفكيراً عدوانياً وفلسفة لاأخلاقية فى ظاهرها ، ويمكن إدراك ذلك من خلال تلك الدوافع ، وهى :

أولا : الدافع البيولوجى : التكوين الجسدى لنيتشه حيث كان ضعيفاً هزيلاً ، ومن ثم كان دائما مريضاً عليلاً ، منذ طفولته حتى وفاته، وإصابته بالمرض العقلى (الجنون) . كان لا يستطيع أن يقوم بعمل شاق ، ولم يستطع الاستمرار فى الخدمة الوطنية بحمل السلاح ، وفى طفولته كان منبوذاً من الأطفال والشباب . كل هذا كان له تأثير سىء على تكوين شخصيته.

ثانيا : الدافع السيكولوجى : كشفت طفولته وشبابه عن عدوانية وكراهية للغير ، فصب لعناته على المرأة والنساء وخاصة بعد فشله فى الزواج ـ وهو نفس ما حدث لكير كجور Kierkegaar الوجودى الدنمركى ، كراهيته للأديان ورفضه لها ، ونقده للفلسفات الأخلاقية التى تقوم على الاحترام والواجب والمساواه بين الناس ، فنقد كانط KANT وروسو Rousseau ونقد جون ستيوارت ميل MILL الإنجليزى ، ومن ناحية أخرى كان يميل « نيتشه » لحب العظمة والعظماء والأبطال (فما كان القيصر بورچيا لمكيافللى ، كان نابليون بالنسبة لنيتشه : رجل عظيماً هزمه خصوم توافه)(١) .

كذلك يكشف تفيكره عن القوة عن نظره سادية Sadism يود إلحاق الأذى دائماً بالغير وإخضاعهم له (فالحياة ـ كما يرى ـ تتوق دائماً إلى الإزدهار والانتشار ولو بالطغيان على الغير وبسط سلطانها عليه ، فإرادة القوة هى الإسم الحقيقى لإرادة الحياة وكل إرادة قوة ، فالحياة لا تزدهر إلا بإخضاع ما حولها)(٢) .

---

(١) رسل : تاريخ الفلسفة الغربية (مرجع سابق) ـ ص ٣٩٦ .

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة (مرجع سابق) ـ ص ٤١٠ .

ثالثا: الدافع الفلسفى : فدراسته وقراءته لفلسفة شوبنهور Schopenhauer (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠) التشاؤمية ، تلك التى جعلت من الموت إرادة للحياة وعلينا أن نقتل الموت حتى نعيش ونحيا ، كما أن الحياة بؤس وشقاء دائمين ، وغيرها من أفكار سوداوية ، كان لها وقع حثيث على فكر «نيتشه » إلا أنه وضع مبدأ مخالف لمبدأ شوبنهور وهو إرادة القوة بدلاً من إرادة الحياة .

(فإرادة الحياة عند شوبنهور جهد غريزى يحقق به كل كائن نموذج نوعى ويناضل الكائنات الأخرى للحفاظ على صورة الحياة التى توافرت لديه ، وهى غريزة أصليه راسخة فى الإنسان ومفروضة عليه) [١].

إذاً إرادة الحياة عند شوبنهور غايتها الحفاظ على بقاء النوع أما إرادة القوة عند نيتشه فمن أجل إثبات الوجود الأبدى اللامتناهى ، وهو اختلاف واضح بين كلا الفلسفتين أو التفكيرين .

هذه الدوافع المتعددة أدت بنيتشه إلى صياغة منظور فكرى يشوبه انعدام الثقة البعيد عن منطق الأسوياء ، فيه من المغالاة فى التعالى ، لتحقيق مالا يمكن تحقيقه ، فظهرت أفكاره مليئة بالمتناقضات ، عن الأنانية والإيثار ، عن الحرب والسلم ، عن الإمبرياليه والديمقراطية والاشتراكية ، عن الديانة المسيحية وهجومه المذرى عليها ـ رغم كونه مسيحياً من أسرة متدينة ـ فصار ملحداً شديد الالحاد بالدين والله الخالق . فإذا كان يأمل فى الارتفاع بالإنسان نحو ما هو فاضل ونبيل ، فعليه ـ من البداية ـ إلا أن ينظر للإنسان على أنه إنسان وليس إله ، إنسان ليس متجاوزاً لطبيعته البشرية أو متعالياً عليها .

لقد تأكد من خلال إرادة القوة عند نيتشه أنه تشابه تشابها جليا مع مفكر عصر النهضة السياسى « مكيافللى » والذى كان يدعو الأمير للتمسك بالقوة فى

(١) المعجم الفلسفى : مجمع اللغة العربية (مرجع سابق) ـ ص ٧ .

ـ المعجم الفلسفى : د. مراد وهبة ـ القاهرة ـ دار الثقافة الجديدة ـ ١٩٧٩ ـ ط ٣ ـ ص ١٦ .

كل صورها العقلية والوجدانية والحسية من أجل تحقيق غايته المثلى وهى توحيد بلاده ووطنه مع استخدام وسائل القهر والظلم والسيطرة والغدر ، وغيرها من مظاهر القوة ، وهذا ما أكده الباحث فى عرضه فى الفصل الأول من البحث ، ومن جانب « نيتشه » فقد ذهب أيضاً إلى أن الحياة فى ازدهارها ورقيها لا يتم إلا بالاستناد إلى القوة وأشكالها من طغيان وبسط نفوذ الغير على الآخر ، وإخضاع الغير وكلها توحى بالتسلطية والسيادة والعدوانية .

كذلك مارفضه « مكيافللى » ونقده للدين المسيحى أو بالتحديد رجال الكنيسة وهجومة عليهم أنهم مصدر ضعف الأمة واستكانتها وتفرقها ، قام «نيتشه» بالهجوم على الدين المسيحى حتى أضحى ملحداً . إلى جانب ذلك يلاحظ أن فكرة الغاية تبرر الوسيلة التى نادى بها مكيافللى وجعل من الدولة قوة وفقا لهذه الفكرة ، فإن نيتشه كرر نفس المفهوم فى إطار نظريته عن إرادة القوة .

إلا أنه من جانب آخر يلاحظ أن دوافع مكيافللى لأفكاره السياسية تختلف عن دوافع نيتشه ، فالأول دوافعه وطنية سياسية أما الثانى فدوافعه أخلاقية فلسفية تأملية ، تتجه نحو المستقبل البعيد لتحقيق الوجود الإنسانى الأبدى .

أن نيتشه بأفكاره وآرائه تلك ـ هى فى واقع الأمر ـ لم تكن سوى تكرار لأفكار من سبقوه من المفكرين ، ولم يأت بفلسفة واقعية جديدة كما تصور هو بل عرضها فى إطار فلسفى معدل .

من خلال فكرة إرادة القوة ، يتساءل الباحث : ما الفرق بين حياة قوامها الإرادة والعقل والحكمة ، وبين إرادة قوامها القوة والقهر والسيطرة والعدوانية والطغيان ؟ !

ما الفرق بين إرادة تكون من أجل إثبات وجود الذات وحسب ، حتى ولو بفناء الإنسان ، وبين إرادة غايتها فى الحياة هو المحافظة على بقاء النوع الإنسانى وليس هدمه أو فنائه ؟ !

هل إرادة القوة تعنى أن حكم الأقلية من البشر هو أقرب إلى الإنسان الأعلى إنسان المستقبل كما ذهب نيتشه ؟ هل الفردية عنده هى التعبير الأمثل للإنسانية ؟

واقع الأمر يؤكد الباحث على أن منطق « نيتشه » منطق متناقض تماماً ، ومن ثم فإن كل هذه التساؤلات إذا أردنا الاجابة عليها فإنه يمكن ذلك على أساس مفهوم العالم المعاصر لتلك القوة Power or Force فى إطار عدة منطلقات:

(أ) الارتقاء بالعقل الإنسانى من خلال المعارف والعلوم المختلفة والثقافات المتعددة .

(ب) الاستناد إلى وسائل الاقتصاد من تكنولوجيا وعلم ، وصناعة وزراعة وثروات طبيعية ، ذلك بالمحافظة على حياة الإنسان واستمرار تفاعلاته العملية .

(ج) الاستناد إلى النظم السياسية الواقعية والقوانين الدولية والمحلية ، فى حل المشكلات والنزاعات بين مجتمع الدولة الواحدة ، وبين المجتمعات الدولية المختلفة ، مما يؤهل الإنسان للتطور والتقدم فى كل مجالات الحياة فتنشأ الحضارة الإنسانية العالمية .

من خلال تلك المنطلقات لن تصبح القوة هى الغاية أو الوسيلة فى إثبات وتأكيد الوجود الإنسانى ، ولن تكون الإرادة ـ التى تبدأ من الذات إلى خارجها ـ هى المبدأ الأمثل فى استمرار البقاء ، ولن تصبح التجربة الذاتية الباطنية التى نادى بها كل الوجوديين قبل نيتشه وبعده من أمثال هيدجر ويسبرز وسارتر هى محور ارتكاز الوجود الذاتى فحسب . وإنما تبرز التجربة الواقعية والممارسة العملية ومعها التمسك بالقيم والمثل الأخلاقية والدينية ، لتكون هى المفهوم والمحور الرئيسى فى تأكيد الوجود الإنسانى .

ثالثا : بوزانكيت * وفعل الدولة :

للقوة أنواع متعددة قوة الإرادة ، قوة الفكر أو العقل ، قوة العدالة ، قوة الروح ، قوة الضمير . العاطفة (الحب) ، قوة الحركة ، الطاقة ، قوة الوجود (الفردى والجمعى) ، قوة الطبيعة ، قوة السياسة ، وقوة الاقتصاد ، أما أساليب القوة فتتمثل فى القهر والقسر ، السيطرة والهيمنة ، الارهاب ، الاستعمار ، الاحتلال ، الاضطهاد ، الضغط ، الاغتصاب ، العقاب .

أما عن القوة فى ذاتها فهى وجود حقيقى يتحقق من خلال الفعل والفاعل ، فبوجودهما تثبت كمال القوة ووجودها ، ذلك كما قال إبن رشد فى تلخيص ما بعد الطبيعة لأرسطو :

كما أن القوة تعد قيمة أخلاقية تشمل الوجود الإلهى والوجود الفيزيقى والوجود البشرى ، وعن تحليل فعل القوة كإمكان واستطاعة ، ننظر إلى الذات وإمكاناتها ، وكيفية تحقيق القوة فيما بينهما ، وأيضاً نشأتها بين الذات والغير أو الأنا والآخر ، والفعل قد يكون معادلاً أو مغايراً بينهما كالعلاقة بين الفرد والأسرة أو المجتمع ، الفرد والدولة . وهذا يدل على أن أسلوب الفرد فى الحياة العامة والخاصة داخل الدولة ـ على سبيل المثال ـ التى يقطن بها وينتمى رليها يسير فى إتجاهين مختلفين ، أما **الأول** فيظهر فى علاقة انتماء الفرد لوطنه ومدى احترامه لقوانين بلاده ونظمها ، وعاداتها وأخلاقياتها ، ومن ثم تظهر قوته كامنة فى ذاته متمثلة فى إستطاعته وقدرته على حب وطنه ، هذا السلوك ينم عن مدى التوافق الدائم والتصالح المستمر سواء سياسى أو اجتماعى أو أخلاقى ، بينه وبين الدولة التى يعيش فيها . أما الاتجاه **الثانى** فهو على النقيض ، حيث يأخذ الفرد داخل دولته ومجتمعه فى الصراع والتنافس ومناهضة القوانين والسلطة أو نظام

(*) برنارد بوزانكيت : (١٨٤٨ ـ ١٩٢٣) ولد فى أكسفورد بإنجلترا ، تعلم بها حتى تخرج وعين أستاذاً فيها . فلسفته مثالية فكان من أنصار الهيجلية الجديدة . من أهم مؤلفاته :

١ ـ المنطق ومورفولوجيا المعرفة . ٢ ـ قيمة الفرد ومصيره ٣ ـ ما الدين ؟

٤ ـ الحياة والفلسفة . ٥ ـ مبدأ الفردية والقيمة .

الحكم ، وغيرها من أساليب المناهضة . إلا أنه ينشأ من الطرف الآخر ـ أعنى الدولة ـ إستخدام للقوة بأساليبها المتعدده ضد الطرف المناهض أى الفرد أو الجماعة .

إن القوة بأساليبها وبأنواعها وأبعادها ـ فى واقع أمرها ـ تتحقق فى السلم والحرب بين طرفين لهما من الاستطاعة والإمكانية والقدرة ما يؤهلهما للتخطيط لها ولتنفيذها ، إلا أنه يوجد نوع من القوة البعيدة عن الإنسان والطبيعة ، هى القوة الروحية . « فهى القوة الأعظم لأنها القوة المطلقة إنها قوة الله ، فالله روح مطلق » (١).

فقوة الله ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ فى خلقة وقدرته على خلق الفعل والفاعل فى الطبيعة والإنسان ناشئة عن عدالته فيها ، وتلك هى عدالة السماء الحقة التى تتحقق بإطلاق ، قال تعالى فى قرآنه الحكيم « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا » سورة البقرة من الآية ١٦٥ وقال « أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » من س . الذاريات الآية ٥٨ .

لقد تناول الباحث ـ من قبل ـ أفكار مكيافللى عن قوة الحاكم ، وأفكار هوبز عن القوة المطلقة للحاكم فى الحكم ، وأفكار نيتشه عن إرادة القوة فى حياة الإنسان من أجل إثبات وجوده فيها ، إلى جانب إبراز صور القوة السياسية فى الفاشية والنازية وغيرها ، كلها انصبت على إمكانية فعل القوة من طرف واحد هو الفرد فقط ، ويمكن تناول هذا الفعل زى فعل القوة من جانب سياسى آخر هو الدولة ونظام حكمها ، ذلك من خلال فكر أحد الفلاسفة الانجليز فى الفكر المعاصر وهو بوزانكيت Bosanquet حيث يقول فى بداية أفكاره السياسية عن الدولة (« ما من إنسان يحيا إلا وتوجد دولة ») (٢).

(١) تيليس (بول) : الحب والقوة والعدالة ـ ترجمة / د. كامل يوسف حسين ـ القاهرة ـ دار الثقافة للنشر ـ ١٩٨١ ـ ص ٣٥ .

(٢) د. على عبد المعطى : بوزانكيت قمة المثالية فى انجلترا ـ الاسكندرية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٣ ـ ص ١٦٥ .

((كل فرد فى الحياة المتحضرة يجب أن ينتمى إلى دولة واحدة ، وإلى دولة واحدة فقط)) (١).

هذا يدل على مدى الترابط بين الإنسان والمجتمع ، والأهمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لشئون حياة الفرد داخل الدولة أى داخل نظام حكم معين غايته الارتقاء بأفراده . ويدل هذا أيضاً ـ كما ذهب روسو من قبل ـ على وجود نوعين من الإرادة ، الأولى الإرادة العامة الممثلة فى الدولة والمجتمع ، والثانية الإرادة الخاصة الممثلة فى الفرد ، ولكى تحقق الدولة العدالة بين تلك الإرادات الفردية أو الخاصة ، ينبغى أن تشرع القوانين وتسن التشريعات اللازمه فى كل مجالات الحياة التى تؤكد ذاتية تلك الإرادة الفردية وتحترم أفكارها وإبداعاتها فترقى بها وتحقق غايتها وهى الحياة الأفضل والأسمى لأفرادها وهذا هو فعلها ودورها ، إلى جانب ذلك يرى بوزانكيت أن على الدولة إرساء الحقوق وتدعيم الواجبات .

((وللوصول إلى الحقوق يلزم أن تمارس الدولة « القوة » ويمكن أن تمارسها على الطبيعة الإنسانية بالثواب والعقاب معاً)) (٢).

فبوزانكيت يؤمن باستخدام العقاب الذى هو صورة من أساليب القوة ، ضد الخارجين على الدولة ، كما أنه يؤكد على أن الإرادة العامة لها اليد العليا عن الإرادة الفردية .

((فالقسر أو العقاب أو القوة ما هى إلا ممارسة للإرادة العامة ومحاولة للارتفاع والارقاء بالذات التجريبية الطبيعية النفعية إلى الذات الكلية العامة العاقلة، أى أن فعل الدولة سواءاً أكان متضمناً فى نسق الحقوق أو كان داخلا فى نسق العقاب هو ممارسة للإرادة الحقيقية الكلية)) (٣).

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٧٨ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ١٧٩ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ١٨٠ .

واقع الأمر يقر بأن للدولة الأثر الواضح الدائم على الفرد الذى ينتمى إليها وهو أثر حضارى وثقافى وتاريخى لأن ذاتها أسمى من ذات الفرد ومن ثم فهى لا تخطىء حتى لو كانت مقصرة ، بعكس فعل الفرد ففيه ومنه يصدر الخطأ والقصور والعجز رغم ما قد يكون له من أفكار بنائة (فالدولة ـ كما يقول بوزانكيت ـ كائنات مسئولة خلقياً لكنها لا تفعل الخطأ كما يفعله الأفراد ، وإذا كانت تقصر فإنها لا تخطىء) [1] .

ويوضح بوزانكيت عدة أشكال للعقاب الذى تتخذه الدولة تجاه رعاياها وأبنائها ، وهى ثلاثة :

الأول : عقاب أصلاحى : ويعنى بعلاج وتقويم وتهذيب للخارجين على القوانين دون قسر ، وهذا أسلوب قد يجدى وقد لا يجدى .

الثانى : عقاب جزائى : وهو نوع يوقع على كل من خرج من الأفراد على قوانين الدولة ونظامها وفلسفتها .

ثالثا : عقاب وقائى : وينصب على وضع العوائق والموانع التى تمنع وتحد الفرد من الوقوع فى الخطأ والاستمرار والتمادى فيه بل وتمنعه من الوقوع فيه مرة أخرى ، بوضع المحاذير والتوجيهات والارشادات .

تلك السبل فى فعل الدولة هو فى حد ذاته دفاع عن نظامها فى الحكم ، ووقاية لأفرادها وحماية لهم من أجل تحقيق الاستقرار بها والرفاهية والمجتمع الأفضل .

إذاً ـ أستنتاجاً ـ مما ذهب إليه بوزانكيت لوحظ أن فكرة أو مفهوم القوة قد أستخدم ولكن بصورة مختلفة عما استخدمها بعض من سابقيه فى عصر النهضة أو الفلسفة الحديثة إلا أن الغاية واحدة وهى الحفاظ على نظام الحكم واستقرار الدولة .

---

(١) الموسوعة الفلسفية : د. عبد المنعم الحفنى ـ بيروت ـ دار إبن زيدون ـ بدون تاريخ ـ ط ١ ـ ص ١١٨ .

خاتمة البحث

أن رؤية الفلاسفة للسياسة تبدأ دائماً من منطلق أخلاقى ينبغى تطبيقه على الأفراد داخل الدولة الواحدة أو المجتمع الواحد ، بحيث يقع الإلتزام والمسئولية تجاه كل منهما أى الفرد والمجتمع ، كما أن السياسة شأنها شأن كل العلوم الإنسانية يجب أن تقوم على فلسفة الأخلاق .

أما شأن استخدام مفهوم القوة فهو أسلوب إما لحماية الدولة من خارجها أو حماية الأفراد من داخلها ، أى أنه ليس أسلوباً تسلطياً فى مضمونه وجوهره . ومن جانب الرؤى التى عرضها الباحث وأوضحها فى سياق البحث تجاه مفهوم النظام السياسى ، ومفهوم القوة ، والدولة ، وعلاقة الدولة بالدين ، وعلاقة ذلك كله بالفرد ، فنجد أن « مكيافللى » قد فصل بين السياسة والأخلاق وبين السياسة والدين وهذا ما وضح فى إطار مفهوم العلمانية ، وأيضاً هوبز فقد إنتهج أسلوب الدفاع عن قوة الحاكم والأسرة الحاكمة مما دفعه للهجوم على العقيدة ورجال الدين ، وعن نيتشه فتحدث عن القوة فى ذاتها كإطار حقيقى وإثبات الوجود البشرى ، أما بوزانكيت فكان أسلوبه ونهجه السياسى أخلاقى واسع الأفق حيث وضع القواعد الأساسية فى كيفية استخدام الدولة للقوة فى صورة العقاب الذى يمكن تجنبه باصلاح الأفراد وتهذيبهم .

إذاً فلسفة القوة فى مضمونها فلسفة سيادية تبعث على الاحترام بين الأنا والغير ، فلسفة بعيدة عن القسر والقهر والظلم والغضب . ومن جانب آخر يمكن وضع عدة ملاحظات على الأسلوب المكيافللى السياسى وأسلوب القوة :

(١) أن صور القوة المتعددة لن تزول إلا بالفهم الواعى لمفهوم القوة ذاته ، فلو فسر على أنه ضد لضد وسيطرة لطرفين فهذا خطأ لأن فهمها ينبغى أن يقوم على أساس مدى حفاظها للنظم السياسية والقوانين المحلية والعالمية وتأكيد وانتشار العدالة وتأمين تواصل الأنا بالغير .

(٢) أن مكيافللى لم يهتم بالجانب الاقتصادى وأهميته فى قيام وبناء الدولة ، وركز أفكاره نحو قوة الأمير وكيفية فرض سلطته الداخلية على رعايا البلاد ، إلى جانب فرض سيطرته على خارجها كلما أمكنه ذلك .

(٣) أنه جعل من الأمير منقذاً ومصلحاً إلى جانب كونه حاكم وقائد ، فهى سمات لن تتوافر إلا فى رسول أو نبى يستطيع بحكمته أن يدبر شئون المجتمع أو القوم ، حتى يخرجهم من الظلمات إلى النور . إن أمير مكيافللى متسلط يهدف إلى جمع شتات دويلات إيطاليا بكل الوسائل والسبل المشروعة وغير المشروعة .

أن أساليب إستخدام القوة فى عالمنا المعاصر يشوبها فكر جامح نحو النفعية والمصلحة الذاتية فحسب دون إلتزام بقانون أخلاقى أو قيم إنسانية ، ومن ثم يلزمه بناء عالم أخلاقى متحضر ، عالم يذكره تاريخ الفكر بكل صوره وأشكاله بالحضارية والأخلاقية . إن بناء الشعوب والمجتمعات الإنسانية والأجيال البشرية المتعاقبة ـ سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ـ بناء حضارتها وثقافتها وعلومها لا يمكن أن يتم إلا إذا أُقيمت على صرح من القواعد والقيم الأخلاقية والقانون الخلقى والقيم الدينية السمحاء والالتزام بها ، فلا حضارة ولا علم ولا سياسية بدون الأخلاق .

والله ولى التوفيق

مراجع البحث

أولاً : المصادر الأجنبية :

(1) Hobbes (T.): Ieviathan - Chicago (Great books) - 1982 - printing 24 .

(2) Machiavelli (N.): The Prince - Chicago - 1982 - prin. 24 .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

(1) Capleston (F.M): Philosophers and philosohy - Landon - 1976.

(2) George (P. Stein): Forum of philosophy - New York - 1973 .

(3) Richard / Alston : The problems of philsophy - London - 1978.

ثالثاً : المراجع العربية :

١ ـ د. أحمد عزت راجح : **أصول علم النفس** ـ الاسكندرية ـ المكتب المصرى الحديث ـ ١٩٧٠ ـ ط ٨ .

٢ ـ اسماعيل المهدوى : **العقلانية الشاملة** ـ القاهرة ـ ١٩٩١ .

٣ ـ د. إمام عبد الفتاح إمام : **توماس هوبز (فيلسوف العقلانية)** ـ القاهرة ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ ١٩٨٥ .

٤ ـ د. أميرة حلمى مطر : **الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس** ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٨٧ ـ ط ٤ .

٥ ـ د. عبد الكريم أحمد : **أسس النظم السياسية** ـ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب بجامعة القاهرة ـ ١٩٧١ .

٦ ـ د. عبد الكريم أحمد : **دراسات فى النظرية الحديثة** ـ القاهرة ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ ١٩٧٣ .

٧ ـ د. عبد الرحمن بدوى : **الأخلاق النظرية** ـ الكويت ـ وكالة المطبوعات ـ ١٩٧٥ .

٨ ـ د. علاء حمروش : **تاريخ الفلسفة السياسية** ـ القاهرة ـ دار الثقافة للطبع والنشر ـ ١٩٨٦ .

٩ ـ د. على عبد المعطى محمد : **بوزانكيب (قمة المثالية فى إنجلترا)** ـ الاسكندرية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٣ .

١٠ ـ د. على عبد المعطى محمد / د. محمد على محمد : **السياسة بين النظرية والتطبيق** ـ الاسكندرية ـ دار الجامعات المصرية ـ ١٩٧٤ .

١١ ـ د. فرج فوده : **حوار حول العلمانية** ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ .

١٢ ـ د. لويس عوض : ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوروبية ـ القاهرة ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ ١٩٨٧ ـ ط ١ .

١٣ ـ د. محمود إسماعيل محمد : **دراسات فى العلوم السياسية** ـ القاهرة ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ ١٩٧٢ .

١٤ ـ أ/ يوسف كرم : **تاريخ الفلسفة الحديثة** ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٦٩ ـ ط ٥ .

رابعاً : المراجع المترجمة للعربية :

١ ـ أرسطو طاليس : **السياسة** ـ تقديم / بارتلمى سانتهيلير ـ ترجمة / أحمد لطفى السيد ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٩ .

٢ ـ باول (جون) : **الفكر السياسى الغربى** ـ ترجمة / محمد رشاد خميس ـ مراجعة / د. راشد البراوى ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٥ .

٣ ـ برينتون (كرين) : **تشكيل العقل الحديث** ـ ترجمة / شوقى جلال ـ الكويت ـ عالم المعرفة (العدد ٨٢) ـ ١٩٨٤ .

٤ ـ توماس (هنرى / دانالى) : **المفكرون من سقراط إلى سارتر** ـ ترجمة / عثمان نويه ـ القاهرة ـ الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٠ .

٥ ـ تيليس (بول) : **الحب والقوة والعدالة** ـ ترجمة / د. كامل يوسف حسين ـ القاهرة ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ ١٩٨١ .

٦ ـ جوليفيه (ريچيس) : **المذاهب الوجوديه** ـ ترجمة / فؤاد كامل ـ القاهرة ـ الأنجلو المصرية ـ ١٩٨٢ .

٧ ـ دى كرسبنى / كينيث مينوج : **أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة** ـ ترجمة / د. نصار عبد الله ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٨ ـ الألف كتاب الثانى (العدد ٦٠) .

٨ ـ رايلى (كافين) : **الغرب والعالم (القسم الثانى)** ـ ترجمة / د. عبد الوهاب محمد المسيرى ، د. هدى حجازى ـ مراجعة / د. فؤاد زكريا ـ الكويت ـ المجلس الوطنى للثقافة والفنون ـ عالم المعرفة (العدد ١٩٧) ـ ١٩٨٦ .

٩ ـ رسل (برتراند) : **تاريخ الفلسفة الغربية** ـ ترجمة / د. محمد فتحى الشنيطى ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٧ ـ جـ ٣ .

١٠ ـ رسل (برتراند) : **حكمة الغرب** ـ ترجمة / د. فؤاد زكريا ـ الكويت ـ عالم المعرفة ـ (العدد ٧٢) ـ ١٩٨٣ ـ جـ ٢ .

١١ ـ لوكاكش (جورج) : **تحطيم العقل** ـ ترجمة / إلياس مرقص ـ بيروت ـ دار الحقيقة للطباعة والنشر ـ ب . ت ـ جـ ٢ .

١٢ ـ مكيافللى (نيقولا) : **الأمير** ـ ترجمة / د. خيرى حماد ـ بيروت ـ دار الآفاق الجديدة ـ ١٩٩٠ ـ ط ١٨ .

خامساً : المعاجم والموسوعات :

١ ـ **معجم العلوم السياسية** : د. أحمد سويلم العمرى ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٥ .

٢ ـ **المعجم الوسيط** (**معجم فى اللغة العربية**) : مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ ط ٣ .

٣ ـ **المعجم الفلسفى** : مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ المطابع الأميرية ـ ١٩٧٩ .

٤ ـ **المعجم الفلسفى** : د. مراد وهبة ـ دار الثقافة الجديدة ـ ١٩٧٩ ـ ط ٣ .

٥ ـ **الموسوعة الفلسفية** : د. عبد المنعم الحفنى ـ بيروت ـ دار إبن زيدون ـ ب. ت ـ ط ١ .

وشعبها من أى محتل أو عدو غادر ، الى جانب استخدام القوة ـ كلما اقتضت الضرورة ـ ضد أفراد شعبها مع وجود قانون ينظم علاقات الأفراد داخل دولهم وذلك يعد أفضل ممثل لاستمرار العلاقة بينهم .

إن أية دولة فى العالم تحتاج للأمن الداخلى والخارجى ، هذا شىء أو ظاهرة طبيعية ، ومن ثم لم تكن رؤية وإنذار مكيافللى للأمير أو الحاكم إلا بمثابة تأمين وحماية للدولة والحكم ونظامه ككل . من ناحية أخرى أوصى مكيافللى بالاستناد على عدة وسائل أخلاقية ينبغى للأمير أو الحاكم أو الدولة الارتكاز عليها سواءً فى حكمها المونارکى (الفردى) أو الجماعى ، فقال «الأمير العاقل هو من يتبع لمجلسه حكماء الرجال ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية فى الحديث إليه ومجابهته بالحقائق ... ولكن عليه أن يسألهم عن كل شىء ، وأن يستمع إلى آرائهم فى كل شىء ، وأن يفكر فى الموضوع بعد ذلك بطريقته الخاصة ، وعليه أن يتصرف فى هذه المجالس ومع كل من مستشاريه بشكل يجعله واثقاً من أنه كلما تكلم بصراحة وإخلاص كلما كان الأمير راضياً عنه ...»[1] .

هذا يدل دلاله واضحة على أن الحاكم أو الدولة يجب أن تستخدم مجالس الشورى أى استشارية لمشروعية إتخاذ القرارات لأنها لازمة لزوم استمرار بقاء الحاكم أو الدولة فكليهما يحكم فى سياق ونظام ، وفى هذا أيضاً يدل على تبادل الثقة وتوافرها ـ إلى حد ما ـ بين الحاكم ومستشاريه أو الهيئة الاستشارية التى خصصها كصفوة المجتمع ، ومن ثم إعطائهم حرية الرأى والفكر ، والتعبير عن قضايا الدولة وشئونها ، وعلى الدولة أو الحاكم أن يتخذ القرار الملائم تجاه المشاكل والقضايا .

إلى جانب تكوين مجلس الشورى أو الهيئة الاستشارية داخل الدولة ، يجب عدم الاستعانة بالأجانب فى المساعدة والتدخل فى شئون الدولة ، وخاصة

---

(1) Ibid : P. 33

ـ قارن : نفس المصدر السابق ـ ص ١٨٤ فصل ٢٣

الجانب العسكرى ، لأن الأجنبى دائما تواق للنهب والسلب والنيل من تلك الدولة أو ذاك ، سواءً من خلال فرض الضرائب أو استغلال أبناء الوطن بتسخيرهم له أو استغلال ثرواتهم ، وفى هذا يقول مكيافللى :

« إن القوات المسلحة التى يعتمد عليها الأمير فى الدفاع عن ممتلكاته ، إما أن تكون خاصة به أو مرتزقة أو ردبفاً أو مزيجاً . وفى قوات غير مجدية وتنطوى فى وجودها على خطورة بالغة ، وإذا اعتمد عليها أحد الأمراء فى دعم دولته ، فلن يشعر مطلقاً بالاستقرار والاطمئنان . فهذه القوات لا تعرف النظام ولا تحفظ العهود والمواثيق ، تتظاهر بالشجاعة أمام الأصدقاء وتتصف بالجبن أمام الأعداء ، ولا تخاف الله ولا ترعى الذمم مع الناس ، والأمير الذى يعتمد على هذه القوات ، قد يؤجل دماره المحتوم ، إذا تأجل الهجوم الذى سيتعرض له ... إن الدمار الذى لحق بإيطاليا نجم عن شىء واحد ، وهو اعتمادها سنوات طويلة على جيوش المرتزقة » (١).

« لقد أقر الحكماء دائماً أنه ليس هناك أضعف من الإنسان الذى يعتمد فى قوته على قوة الآخرين . وقوات الإنسان [أى الحاكم] الخاصة هى تلك المؤلفة من مواطنيه » (٢).

إذاً إستناد حكام الدول بل والدول ذاتها بوجه عام على مواطنيها الذين يقطنون بأراضيها فى تكوين جيوشها للدفاع عنها أمر لا بديل عنه لأن مواطن الدولة دائماً وعلى الأكثر ، أفضل انتماءاً وولاءاً من أى فرد أجنبى مهما عظمت صداقته لدولة المواطن ومن ثم كانت القوانين والدساتير الدولية تؤكد على احترام مواطنى الدول ، لأنهم يشكلون مؤسساتها وتنظيماتها وجيوشها . إن فكرة مكيافللى السياسية هذه تنم عن بعد نظر صاحبها إن لم تكن فى عهده فى

---

(1) Ibid : P. 18 ـ قارن الأمير : (الترجمة العربية) ص . ص ١١٨ ، ١١٩ فصل ١٢

(3) Ibid : P. 21 ـ قارن : نفس المصدر السابق ـ ص ١٣٠ فصل ١٣

إيطاليا ففى العهود التالية عليه . فالبعض من الدول يستعين بالدول القوية ولكن من حيث تمويلها بالسلاح والمؤن وليس بالجنود ، وبعضها الآخر يستعين بالدول الأخرى من خلال أفكارها فحسب ، وبعضها الثالث قد تكون دول ضعيفة فتعتمد على الدول القوية أيضاً من حيث السلاح وكذا الجيوش بشرط النزوح عنها فور إنتهاء الحرب ، إلا أن توصل مكيافللى إلى فكرة الاعتماد على مواطنى الدولة من داخلها أفضل بكثير من الاستناد إلى الأجانب ، هى حكمة واقعية وعملية مستقاة من الواقع السياسى للدول قديمة وحديثة ومن ثم فهى جديرة بالالتزام والاحترام .

لقد استطرد مكيافللى لتحقيق غايته وأهدافه بالاستناد إلى الوسائل المختلفة، وأبان عن دور القائد أو الأمير وما ينبغى أن يتحلى به من صفات وما يجب أن يلتزم به فى خارج بلاده وداخلها ، أراد مكيافللى أن يطرق وسيلة الحرب ـ أعنى السلاح ـ فالسلاح قوة مادية لابد لكل دولة من توفيرها والاهتمام بها من أجل الدفاع عن نفسها ، فالقانون نفسه يحتاج لتنفيذه قوة السلاح ـ فى كثير من الأحيان ـ والحماية للممتلكات والثروات والأراضى أيضاً تحتاج إلى السلاح وغيرها من وظائف الدرع المادى . إلى جانب تثبيت الحكام فى مقاعدهم وعرشهم داخل الدولة ، يقول مكيافللى مخاطباً الأمير « لعل من بين الشرور التى يؤدى إليها الافتقار إلى السلاح هو تعريضك للمهانة والاحتقار ـ وعلى كل أمير أن يتجنب ذلك فالإنسان المسلح يختلف تماماً عن الإنسان غير المسلح ، فليس من المعقول أن نفترض أن المسلح ، يمكن بمحض إرادته ، أن يخضع لغير المسلح، أو أن الأعزل سيكون أميناً بين أتباعه المسلحين ، فهذا التابع يحتقره سيده، وذاك يشك فى ولاء تابعه وهكذا ينعدم الانسجام بينهما ، ولهذا فإن الأمير الجاهل بالمسائل العسكرية يتعرض إلى الكثير من المصائب ، وإلى اختقار جنوده ، بينما يشك هو بدوره فى ولائهم وإخلاصهم » [1].

(1) Ibid : P. 21

ـ قارن : الأمير (الترجمة العربية) ص ١٣٢ فصل ١٤

« عندما تفتقر الدولة إلى السلاح الكافى ، تنعدم القوانين الجيدة ، وعندما تكون جميع الدول المسلحة تمام التسلح تكون جميع قوانينها جيدة » [١].

« إن الحرب عادلة عند من يحتاجون إليها والسلاح مقدس حين تفقد كل أمل إلا فى السلاح » [٢].

واقع الأمر يؤكد على أن لاستخدام العقل والحس والحدس ، أهميتها فى إدراك بواطن الشعوب ومستلزماتها وشعور بأخلاقياتها وسلوكياتها ، إلى جانب الفهم الواعى لفنون الحرب وأهمية السلاح ، فى الحرب والسلم ، والقدرة على المعارك والقتال، وتكوين الجيوش المخلصة ، إلى جانب كيفية التحلى بالأخلاق النبيلة تجاه رعايا الحاكم أو الدولة، والتخلى ـ فى نفس الوقت ـ عن بعض القيم والمثل الأخلاقية. وكلها تحتاج من الحاكم أو الدولة فكر ثاقب ووعى جم حتى يمكنها تملك زمام الحكم وتسيير شئون محكوميها . ويذكر مكيافللى فى كتابه « المطارحات » Discourses تبريراً لغايته وهدفه النبيل مع اختلاف الطرق والأساليب والوسائل قائلاً :

(« فعندما يكون أمن الوطن متوقفاً على قرار يجب اتخاذه لا يكون هناك اعتبار للعدالة والظلم أو الرحمة والقسوة ، أو المجد والعار ، بل ينبغى طرح كل هذه الاعتبارات جانباً ، والاهتمام بقضية واحدة : ما هو الطريق الذى ينقذ حياة الوطن وحريته ») [٣].

---

(1) Ibid : P . 18

ـ نفس المصدر السابق ـ ص ١١٧ فصل ١٢

(2) Ibid : P. 21 .

ـ نفس المصدر السابق ـ ص ١٣١ ، فصل ١٤

(٣) نقلا عن : د. عبد الكريم أحمد : دراسات فى النظرية السياسية الحديثة ـ القاهرة ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ ١٩٧٣ ـ ص ٦٠ .